التاريخ المدني

العلم والأدب
ما يُراد بالعلم والأدب

نريد بالعلم علم الدين والدنيا، فالعالم بالحديث عالم، والعالم بالطب عالم، والعالم بالكلام عالم، والعالم بالهندسة عالم. والكمياء علم، والبيطرة علم،والتاريخ علم والجدل علم، وشرف هذه العلوم بشرف مقاصدها، وأشرفها في نظر الإلهيين ما هذب النفس وأعدها للحياة الخالدة. وعلوم الدنيا هى الوسيلة إلى تلك السعادة كما قال حجة الإسلام الغزالى:إن الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسية الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمرى إنه متعلق أيضًا بالدين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولايتم الدين إلا بالدنيا.

كان البشر قبل ظهور الأديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا، وكانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم يجودون صنعها، ويمجدونها ويتغنون بمدحها، فلما جاءت الأديان المعروفة تغيرالشكل بصورة أخرى، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول . أما الأدب فالذى كانت العرب تعرفه هو ما يحسن الأخلاق ويدعو إلى المكارم. واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديبًا وعلوم

العربية أدبًا. والمراد بالإسلام كما قال النووى من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين.

للأهوية والأهواء تأثير في العلم، والعلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة والوبيئة؛ لأن أهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة، محدودة مطالبهم، فاترة هممهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده أيضًا إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه، لتوزع قواه، وانصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية، واشتعال ذهنه بأمور لايتسع لغيرها في الأغلب.

وكلما توغلت أمة في مضمار المدينة نظرت إلى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة، وشرفت ما تشتد حاجتها إليه منها، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها. فقد رأينا جامعات أوربا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر، فلما عظمت مطالب البشر، وأخذت المدينة تسير سيرها، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ والأدب والطبيعة، لا فضل لدينى لاهوتى على طبيعى رياضى، إلا بالأثر الناتج عن درسه وبحثه، هذا إن لم يرجحوا في عرفهم العالِمَ الثانى. وبينا نجد تماثيل العلماء بالمئات في شوارع الغربيين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم، لا نشهد من علماء الدين إلا نفرًا قليلًا أُقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط.

كان الاقتصار على العلم الدينى في الصدر الأول للإسلام، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة، ورأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين والدنيا، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجتهم، فأقبل الناس عليها، وكانت العناية أولًا بعلوم القرآن والسنة، ثم أقبل الناس على الفقة لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة

الإسلامية وما حدث فيها من المشاكل والعُضَل، ثم أقبلوا على علم الكلام، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصًا، وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصارًا وعشاقًا، ثم مالوا إلى المناظرة في الفقة وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وأبي حنيفة، ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة، إلى أن أخذت تتطور تطورًا جديدًا أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجيء.

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في ديار الإسلام زهد الملوك والأمراء فيها واشتغال الناس بالفتن والغوائل. ومذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه والمال، ضعفت علوم الدين والدنيا معًا. وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد: الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، وتهذيب الأخلاق، على أن من تعلم علمًا للاحتراف لم يأت عالمًا وإنما يجيء شبيهًا بالعلماء. ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، فأقاموا للعلم مأتمًا، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساءُ وأرباب الكسل، فيكون ذلك سببًا لارتفاعه، ومن هنا هُجرت علوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها.

إنَّ الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جدًّا، ولكنهم يكونون على الأكثر ممن نسميهم أو أكثرهم بأهل النبوغ والعبقرية، يتفانون في مقصدهم ويأتون بالجديد بيدعون ويبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنوانًا للتصدر، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الأرض، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقابًا ودهورًا، ومن

هذا الفريق أنجبت الشام قديمًا وحديثًا جماعة افتخرت بهم، وعُدّوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر وإلى مجموع علماء الأمة كتله صالحة أثرت تأثيرًا محمودًا في العلم والمدنية، وقد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا، ولاطراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة، ، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم. وغابت عنا تراجم كثيرمن المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقيين؛ لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا من أهل العلم؛ كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعةً من الصناعات. وقد اصطلح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أطلق يقصد منه العلم الديني. ومن الغريب أن بعض المتأخرين

ممن دونوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والممخرقين ولم يذكروا مثلًا تراجم أهل تلك الأيام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم.

لم يتسلسل العلم قرونًا طويلة في الشام تبعًا لتغير الدول وانصراف الهمم «والعلم مذ كان محتاج إلى العلم» ذلك لأن الشام كان في جميع أدواره ممرًا للفاتحين يطمع فيه جيرانه، بل البعيدون عنه لتوسطه بين بر آسيا وإفريقية وأوربا. والقدر الذى عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كافٍ ولا شك في إنشاء مدينة صالحة خصوصًا إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق والجزيرة ومصر والأندلس وفارس وغيرها. وكأن الشرق مُني بالتساهل والإهمال، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل، فكان مظهر الحياة الفردية في الأعم الأغلب من حالاته، وعلى العكس في الغرب فإنه كان ولا يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه، والتسلسل في الأفكار.

ولقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد في إرهاق الأفكار الحرة، وديوان التفتيش الديني يحرق الأنفس البشرية بالعشرات للقضاء على الفلسفة والتجدد، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد والخروج عن مألوف القوم، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه، ناسيًا أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره. ورأينا في هذا الشرق القريب أُناسًا ينزعون إلى التجديد والإبداع كان نصيبهم من الحياة ضربَ أعناقهم، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وتقية، وكان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جدًّا ظهور من يخلفهم في دعوتهم، وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيهما نابغة يذكر وعالم مبدع، وجاء زمن وهو ليس ببعيد، وقد أصبح الناس ينكرون البديهيات في العلم، ويحرمون ما حلل الله من ضروبه النافعة، فغارت ينابيعه من أرضنا وفاضت في الغرب وزادت مع الأيام فيضانًا، وقويت تقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون فسقطت هيبة العلم. وكان من نتائج عمل العربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة ومن تفاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاعة مدنية الأجداد.

العلم ابن الحرية، والأدبُ ربيب التسامح، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثالَ الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب، وكان العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل. فإن كانت أنطاكية وبيروت قبل الإسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص. والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا في ظل السلام وصلاح السلطان.

هذا شأن العلم، أما الأدب وهو منظوم الكلام ومنثوره والخطب والرسائل فيتصرف أيضًا على هذا المثال، وبه أدركنا بعض الحالة

الاجتماعية والروحية الى كانت عليها تلك الأعصر، ورأينا فيه تبدلًا محسوسًا في القرون التالية، فكانت الآداب في الشام في القرن الأول غيرها في القرن الثاني والثالث، وقد استحكمت أسباب الحضارة وعم الترف، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال، وما لبث في أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلًا، ثم هبت إلى الحياة بعض الشئ في السادس والسابع تبعًا للحالة السياسية التي كان عليها القطر زمن الحروب الصلبية ، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عده في مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع، أما في القرون الأربعة التالية فضعفت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر، وأصبح نظمًا لا شعرًا فُقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسمًا له من الشعر قوافيه وأوزانه، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وتتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه وجده.

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نورده في المنثور، كان الإنشاء في القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالبًا ونبغ في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الإدارة أو السياسة أوالقضاء أو في أمر مهم من أمور الدولة في سطرين أو ثلاثة ليس فيه شئ من الكلفة بتة بل هو آية الفصاحة والبلاغة، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وعتبة بن أبي سفيان وشهدنا التكلف باديًا في كتابة القرون التالية التي انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة وضعف أمرها في الشام. وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى، حتى إذا كان القرن السادس، ونبغ في الدولة الصلاحية القاضى الفاضل بطريقته المستملحة في الكتابة المسجعة على الأغلب، وحذا حذوه العماد الكاتب، ثم ضياء الدين ابن الأثير

صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال المجودين من القدماء لحصرها في قيود الجناس والبديع والأسجاع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها، فما بالك بالإنشاء الذي هو ابتكار المعاني والإبداع في القوالب. وإذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا نقوى على عدِّ منشئ واحد فيه. وحكمنا هذا مبني على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به، أن نصدر حكمًا أصح من هذا على فنون الإنشاء والكتابة والشعر والنظم، والإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم.

ولو لم ينبغ في المؤلفين أمثال القفطي وياقوت وابن أبي أصيبعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقريزي والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا: إن الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس، بيد أنها أصبحت في الحقيقة سجعًا كسجع الكهان بظهور ابن عربشاه الدمشقي وابن حجة الحموي وأمثالهما في القرن التاسع، أما في القرن العاشر وما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف والسجع غالبًا، ومن أفلت من المؤلفين من قيود التكلف، ونجا من الترصيع والتسجيع، جاء كلامه مقبولًا في الجملة وقليل ما هم.

بقيت الكتابة والشعر ترسفان في قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية، وألبسوها حلة قشيبة، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وإبراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين والعقاد وأضرابهم. ومن الشعراء محمود سامي وإسماعيل صبري ثم حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وتلك الحلبة، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم

في العالم العربى ومنها اقتبس شعراء الشام وكتابه وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون. وما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين، وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربي؛ أي منذ زهاء خمسة عشر قرنًا. وكان للصحف والمجلات ولانتشار الآداب الإنكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا، والمبرزون فيه مازالوا قلائل جدًّا، ويرجى أن لا يمضى عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية، والنظر إلى وفرة السكان والغنى، وتوفر أسباب التعليم العربي القطري المصري.

العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام

صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن الرجال الذين اشتهروا مثلًا على عهد الحثيين ومن كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام، وخلفت فيها آثارًا في العمران لا تقوم بغير العلم، ولم ينقل إلا أسماء قليلة اشتغل أربابها بالعلم الديني والدنيوي على عهد بعض الدول الخالفة، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان، ولولا بعض عاديات أثرت عن الأمم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء القطر، وأخبار نقلها التواريخ الصحيحة لقلنا: إن أكثرهم كانوا أممًا بدوية على الفطرة. وأهم ما أُثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة، بل تحسين أصولها وجعلها مطابقة للأصوات، ونقلهم لها إلى الأمم التي أبحروا واتجروا معها، وعنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط وما إليها. وهذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم. قال بورتر: لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف

هجائية، وليس هم أول من استعملوا الكتابة لأنا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين والكلدانيين قبل عهدهم، غير أن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة ونشروها بين أكثر الأمم المتمدنة لاتساع تجارتهم، فإن الحروف الهجائية في لغات أوربا وغربي آسيا وشمالي إفريقية مشتقة من حروفهم.

وأخبار العلم قبل الإسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيه، وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا مطردة، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودى سنة ١٠٠م وله عدة تواريخ وقد صار واليًا على الجليل ، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية، ومنهم يوستوس الطبرانى اليهودى المؤرخ وفيلون اليهودي الجبلي وفيلودومر الابيكوري من جَدَر وتيودور الخطيب من عسقلان وأقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذى نبغ في صور، كما نبغ فيها فرفوريوس الفيلسوف، وكان بعد زمن جالينوس، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسرًا على نهر الطوْنة (الدانوب) وجاء في رَفَنية أرسطيفس الرفني وفلسفته هي الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الأول قبل المسيح في مدينة طرابلس، وممن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم.

واشتهر في هذه القرون الأولى هرميوس البيروني تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب، وطوروس البيروتي في الحكمة، ولوبركوس

البيروتي في اللغويات والفلسفيات، ومناسياس البيرونى في الخطابة، واشتهر في الآداب مرقس كالريوس بروبس البيروتي، وفي الجغرافيا مارينوس الصوري، وكان معاصرًا لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح. وكانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر أوسلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة، ونبغ فيها من الشعراء ورجال الدين والأدب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني، والقديس لوقا، والشاعر أرستياس. وكما كانت أنطاكية دار حكمة وعلم، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان، وكانت فيها مدرسة الفقة التي أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين -وقد نشأ من حمص وبُصرى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها- وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم في تلك المدرسة، ويدرس فيها الفقة والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب، وقد تخرج بأساتذتها أُناس تأفقت سهرتهم في الأدب والشريعة، وكان قضاة الرومان من خريجيها مدة أربعة قرون، وكان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذي ألفه الإمبراطور يوستنيانوس لتدوين الفقه وقيل: ثلاثة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس، ومن أساتذتها إميل بابنيان من بيروت، وكان من أشهر فقهاء الرومان، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة، وإذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله، ومهنم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده في بيروت وغيرهم إلى أنه في صور، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشًا فقيهًا فيلسوفًا بليغًا، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات

أسقف أنطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها. وممن كان في تدمر وفى أرجاء الشام على ذاك العهد كيكلراتيس الصوري وعالم المؤرخين بوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ. وممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح وأسماء أولادها عربية- كاسيوس ويونيسيوس وأوريجانس فيلسوف قيسارية. ومن علماء بيروت الأقدمين هومبوس له تآليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتابًا في البيان والفيلسوف الأفلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساويرس بطريرك اليعاقبة، وهذا كان في القرن الخامس للميلاد. وكثر في القرن الثالث للميلاد الكتاب وأرباب القرائح وأهل العلم والحصافة والحكمة، وممن نشأ من الأدباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين. قال سنيوبوس: حفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الإمبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم وأكملوها ونشروها.

مواطن العلم في القطر قديمًا

كان العلم يدرس في تلك الأحقاب في أربع مدارس وهي القسطنطينية والإسكندرية ورومية وبيروت، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية، وأخرى في آثينا، وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن، ولكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت. وقد ألغى يوستنيانوس مدارس قيسارية وآثينا والإسكندرية، وأبقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ولقب بيروت بأم العلوم وظئر الشرائع. وأعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطًا لهم. وقد خرجت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التى

تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠م الذى التهم بيروت ومساكنها معاهدها.

وكان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها وكان فصحاؤها على العهد اليوناني المرجع الأول في الفصاحة والبلاغة، وكان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة وتخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسي، وقيل: إنه كان في أريحا مدرسة أسسها إيليا.

قال استرابون الجغرافي اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد: لم يبق في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة؛ بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية، وقد أنشأت صيدا في أيامنا كثيرًا من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه، ونشأ في صور انتيباتر وقبله أبولون، وكان في أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه.

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم في هذه الأحقاب، ولم يكن السريان السكان الأصليون دون الرومانيين واليونانيين في تخريج الرجال، ولا سيما في عهد النصرانية فقد هبت في المائة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب وجوارها من رقدتها، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير ، نشأ في حلب أو في صقعها ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرها، وهي إحدى المدارس العالمية في العالم السرياني، ونشأ منهم سمعان العمودي وبالاي والقديس إسحاق الأنطاكي، ومن فحول شعراء السريان، اخسنايا المنبجي أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افتون القنسريني شيد ديرًا على

ساحل الفرات عرف بدير قنسرين، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصرًا طويلًا مات سنة ٥٣٨ وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى العلم في قنسرين، وقد ترجم الأناجيل وغيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية.

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام، ولكنها خرجت للشاميين رجالًا أيضًا، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات، مدرسة حران، وقد أخذت الشام ولا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس والأديار حيث تُدرس الآداب السريانية، ويتنافسون مع المدارس العالية الأخرى في ديار السريان، وكانت حران بمثابة آثينا العالم الآرامي، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية. وفى تاريخ كلدو وأثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة في الشرق، أزهرت في القرن الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها، واشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها، وكان صيتها في فارس والروم وإيطاليا وإفريقية، وهى أول كلية لاهوتية بل أول جامعة درس فيها علم الإلهيات، وظهر منها علماء كفاة كتبوا في الفنون ولا سيما في الإلهيات. واشتهر اليعاقبة كالنساطرة في العلم والتأليف. والنسطوريون أكثر عددًا، واليعاقبة أكثر مادة. وكان يرشح من علوم هؤلاء الأشوريين على الشام شئ كثير للاشتراك في اللغة والدين إذ ذاك.

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقيين والسريانيين والرومانيين والبيزنطيين وما زالت بعص آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم، وأنهم ليسوا دون من خلفهم في أمور كثيرة، مما اهتدى إليه العقل البشري، فإن حرمنا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار، دونوا

فيها أعمالهم الحربية ومآثرهم العلمية، لا جرم أن من ينشئ هذه المصانع وينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى، وهذا لا يزكو إلا بالعلم المختلف الضروب وفي ظل حضارة بديعة.

ما حمل العرب من العلم إلى الشام

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سُمع في تاريخ البشر، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون ويقل من يكتب فيهم حتى في أهل الطبقة الأولى، ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، ومن ضيق البداوة إلى متسع المدينة. ولما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة، وهما في نظرهم جماع كل العلوم، ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية، ولم يكن التدوين بعهد عندهم، وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. أخذت الكتابة من واضعها مرامر بن مرة. وأول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان ممن أُسر ببدر ولا مال له، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ويخلي سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت.

ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم، ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا، كان الشعر مما يفاخرون به، وإذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه

واعتمدوا على قريحته في الشدائد. وكان جبلة بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعرًا مجيدًا يعجب بالشعر ويجيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم.

جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب وكأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض أرجاء الشام. وكذلك حسان بن ثابت ذكر أرض الغساسنة ومنازلهم. وأقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠م في حوران عند الغساسنة إلى وفاته.

جمع القرآن ونشره في الشام

جمع القرآن على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) على ما روى ابن سعد أبي بن كعب ومُعاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عُبيد وأبو زيد ثابت. وكان مجمع بن جارية قد جمع القرآن إلا سورتين أو ثلاثًا. وكان ابن مسعود قد أخذ بضعًا وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع. قال: وكان بقى على مجمع بن جارية سورة أو سورتان حين قُبض النبى، وفى رواية أن من جُمَّاع القرآن -عدا من ذكروا- علي بن أبي طالب وعبيد بن معاوية.

وقال محمد بن كعب القرظي: جمع القرآن في زمن النبي صلى الله وسلم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء، فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا وبلوا وملأوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم. فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم : إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني

رحمكم الله بثلاثة منكم، إن أجبتم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لنتساهم. هذا شيخ كبير لأبي أيوب، وأما هذا فسقيم لأبي بن كعب. فخرج مُعاذ وعبادة وأبو الدرداء.

فقال عمر: ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلة منهم من يَلْقَن، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين. وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، وخرج أبوالدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين. وأما معاذ فمات عام طاعون عَمواس، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات.

وهذه أول بعثة علمية حجازية أتت الشام لتعلم أهلها وتثقفهم. ويرجع الفضل الأول في اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبي سفيان النجباء كما كان أبو سفيان وأبو حرب نقلا الخط العربي إلى الحجاز، والشام مدينة لأمية في أمور كثيرة لاشتراكها في خدمة الحضارة اشتراكًا عمليًا.

قال زيد بن ثابت: أُرسلت إلى أبي بكر فأتيته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال لي: إن القتل قد استحرَّ بالقراء يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن، فأرى أن يجمع القرآن بحال فقلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك. قد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه. قال زيد: فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذى أمرني به من جمع القرآن، أجمع من

الرقاع واللخاف[١] والعسب[٢] وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره. فكانت الصحف عند أبي بكر حياته توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصه ابنه عمر -رواه صاحب الفهرست.

وأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه أبي بكر وتفريقه في الأمصار، وكان بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا: قرآننا أصح من قرآن أهل الشام؛ لأنا قرأنا على أبي موسى الأشعري، وأهل الشام يقولون: قرآننا أصح لأنا قرأنا على المقداد بن الأسود، وكذلك غيرهم من الأمصار، فأجمع رأية ورأي الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكان مودعًا عند حفصه زوج النبي، ويحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدى الناس، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلا منها إلى مصر من الأمصار. وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وقال عثمان: إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم.

فتح العرب الشام ولم يحملوا إليه غير دين يبعد عن الشرك وعباة الأصنام، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم، فاقتبسوا في الحال مدينة من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في أقصر مدة، وأتوا بعدها بأمور جديدة، على ما قاموا بمثل

---

(١) اللخاف ككتاب حجارة بيض رقاق.

(٢) العسب بضمتين جمع العسيب؛ وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

ذلك في بغداد ومصر وفارس والأندلس وغيرها. ولقد أظهروا وهم في أوج عزهم من التسامح مع السكان ما دهش له المخالفون واستغربه الموافقون، ولا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول عليه السلام أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود؛ أي يتعلم لغة غير لغة العرب.

العلم والأدب في القرن الأول

من شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت للأخطل الشاعر صحبة بيزيد بن معاوية مدحه وهجا الأنصار، وما فيهم بيت إلا ويقول الشعر ولم يمسه أحد بسوء، وكان خلفاء الشام يقربونه على حين كان أهل نحلته يتبرمون بسلاطة لسانه، حتى إن الأسقف حبسه مرة في الكنيسة بدمشق لشمته أعراض الناس، واستراساله في هجوهم، هذا والملوك تهابه، والخلفاء تكرمه، وذكره في الناس عظيم. ومنهم مسكين الدارمي والراعي والراجز العجلي والأحوص وعدّي بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الأعور الكلبي والحسين بن عبيد الكلابي وأنيف العذري وأسباط بن واصل الشيباني صديق الخليفة يزيد بن الوليد وجواس ابن القعطل الكلبي وعثمان بن الوليد القرشي. وكان معاوية ومن خلفه من خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم، ومن شعرائهم نابغة بني شيبان كان يفد على المروانيين فيجزلون عطاءه، وكان الأمويون يرسلون لأبي العباس الأعمى أحد شعرائهم بعطائه إلى مكة، وغالوا في الحرص على إكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فإنه كان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم؛ ولكنه كان رضي الله عنه يفضل على العلماء فقد كتب إلى والي حمص: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة

دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله والسلام». وظلت القبائل في الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغبط وتفاخر، وإذا عدمته ذلت؛ لأنها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها.

وقد أعطى النعمان بن بشير عامل حمص أعشى هَمْدان شاعر اليمن عشرين ألف دينار من مال اليمانية، اقتطعها برضاهم من عطائهم دينارًا، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الأول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد، وكان عبدالملك من أكثر الناس علمًا وأبرعهم أدبًا.

وقد نشأ في القرن الأول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبدالرحمن بن غَنْم بن سعد الأشعري الصحابي، بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨)، ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وأمَّره غزو الروم في البحر (٥٣)، وأبوالدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقري ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات سنة (٣٢) وأول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن. ومن علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وأوس بن أوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة سنة (٣٢)، ومن أخبارييهم عبيد بن شَرْيَة الجُرهمي وفد على معاوية بن أبي سفيان وأملى أشياء في أخبار الملوك أخذ عنه علاقة بن كُرْسُم الكلابي أيام يزيد بن معاوية، وكان عارفًا بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أخذت عنه المآثر، وربما جاز أن يعدَّ أول من دوَّن التاريخ في الشام.

ومن علماء الشاميين أبو إدريس الخولاني فقيه الشام وقاضيه، وعمرو البكالي المحدث الفقيه، وبشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني

مروان، وإبراهيم بن كثير بن المرتجلي الرملي، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه أبو سلام الحبشي واسمه محظور ويقال: الباهلي الدمشقي وشهر بن حوشب الأشعري المحدث (١٠٠)، وبلال بن أبي الدرداء الأنصاري قاضي دمشق (٩٣)، وأبو مسلم الخولاني شيخ الفيحاء وزاهدها من سادات التابعين، وروح بن زنباع يكنى بأبي زرعة، ويقال: بأبي رِنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث، ومالك بن دينار أحد أعلام أقام في القدس (٢٣)، وجبير بن نفير الحضرمي عالم أهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقى من كبار المعتزلة، وكان الحسن يقول إذا رأى غيلان في الموسم: «أترون هذا هو حجة الله على أهل الشام ولكن الفتى مقتول». وكان أوحد دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحًا؛ لأنه كان ينال من بنى أُمية، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر مولى بني مخزوم من أهل دمشق كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان.

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام وأسود بن قبيس الحميري من كتاب بني أمية بدمشق، وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنسرين اليعقوبي كان على السفيانيين في الشام ممثل الحركة الأدبية، وقد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة (٦٥٩م) وألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطرلاب والفلسفة واللاهوت، ويعقوب الرُّهاوي وغيرهم، ونشأ في القرن السابع للميلاد؛ أي في القرن الأول للهجرة كالينيكيوسْ البعلبكي وهو مهندس كيماوي قيل: إنه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرهما، وكان أبو قرة أول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية. ومن مشاهير النصارى في القرون الأولى القديس يوحنا

الدمشقي (٧٨٠م) كان علمًا في عصره وألف كتبًا كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنشى وقزما البار وندراوس الأقريطشي والبطريرك صفرونيوس.

عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين

كانت الكتب التي ترجمت لأبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي حكيم آل مروان وعالم قريش، أول نقل أو تعريب كان في الإسلام في عاصمة الشام. وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم، وإذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام ألف شهر، فإنه أنشأ بعلمه مملكة باقية بقاء الدهر، فقد «أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي» والصنعة صنعة الكيمياء. فتَرجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم. وممن نقل له اصطفن القديم، نقل كتب الكيمياء، وكان خالد بصيرًا بالطب أخذه عن يحيى النحوي وأخذ الكيمياء عن مريانس الرومي وأتقن هذين العلمين وألف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الأغراض، دالة على معرفته وبراعته، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه. وكان من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقيل عنه: قد علم علم العرب والعجم، وكان خطيبًا وشاعرًا، فهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات.

وفي الفهرست: ويقال والله أعلم: إنه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير رأيت منه نحو خمسمائة ورقة،

ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير. كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

جاء في التاريخ العام: لما جاءت العرب وجدت المدنية اليونانية راسخة في جميع الأقطار التى داهمتها أولًا مثل الشام ومصر والعراق فاقتربت من المملكة البيزنطية وبدا لها من وراء مدنيتها النبوغ اليوناني، كما تجلى لها من الفرس المدنيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدت في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الأمم القديمة التى لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها.

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها، ثم تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحدًا ولسانها واحدًا وقوانينها المعمول بها واحدة، وذلك من نهر السند إلى أعمدة هركول وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم، وأخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة وسياحة الأفراد وتنقل الجيوش والأمم وانتشار المعتقدات والأخلاق والأفكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل إلى الآخر عاداته وتاريخه وملكاته الطبيعية.

فالمدنية التى عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست إذًا عربية صرفة؛ بل هى بحسب النموذجات التى تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه: يونانية وفارسية وشامية ومصرية وإسبانية وهندية، ولكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدنية ينقلون إلى الشعوب الجاهلة في إفريقيا وإسبانيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وعلومه واختراعاته؛ بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من

كل مكان، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صُبّت فتمازجت تمازجًا متجانسًا أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم. وبفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية في القرون الوسطة التي عاونت فيها أيد أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى، وسلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الاختراع. وفى الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها ومنبعث أنوارها اهـ.

وبعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الإسلام، وفى دمشق على الأرجح أُنشئت أول دار للكتب في العالم العربي، ودمشق أول عاصمة أُنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعلمه هذه الأمة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الأيام. وإن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة، وتمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية، ومن أولها التدوين والترجمة، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب فباعتها من غيرها وهذا يعد من مفاخرها التالدة. وخالد بن يزيد أول من عُني بعلوم الفلسفة ولم يتفرد بذلك المنصور العباسي خلافًا لما قاله كاتب جلبي من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية. قال الأصفهاني: كان خالد بن يزيد ينزل حلب وتوفي سنة (٨٥هـ).

وبذا رأينا أن التدوين حدث في القرن الأول في العلوم الدنيوية، ويرى نالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم، وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما، ثم دونوا فيما هو كالوسيلة إليهما.

وحدث التدوين في عصر الصحابة الكرام على ما في «توجيه النظر» فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتابًا في علم الفرائض، وذكر البخارى أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث، وذكر مسلم في صحيحه كتابًا ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي. وذكر صاحب الفهرست أنه رأى في مدينة الحديثة على الفرات خزانة للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين، وأمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي وبخط غيره من كتاب النبي، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم.

وذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين في الطب وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس وبثه في أيديهم. وعمر بن عبد العزيز هو الذي قال: كنت أصحب من الناس سراتهم، واطلب من العلم شريفه، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفساف العلم، فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه.

علماء القرن الثاني والأدب والنقلة والمنشئون فيه

مضى القرن الأول وجاء الثاني فكثر القراء والمحدثون والشعراء والنقلة والمترسلون والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العناية بالعلم والأدب، وقد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حَيْوَة الفلسطينى الكندي الأردني الفقيه العالم الذى كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١٠١)، ومكحول مولى بني هذيل فقيه الدمشقيين وأحد أوعية العلم والآثار (١١٣)، وعبد الله بن عامر اليحصبي القارئ المحدث أحد

القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (١١٨)، وسليمان بن موسى الأشدق الفقيه وكان أعلم أهل الشام بعد مكحول (١١٩)، وربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣)، سليمان بن حبيب المحاربي قاضي دمشق أربعين سنة (١٢٦)، ويحيى بن يحيى بن قيس الغساني كان ثقة إمامًا عالمًا بالفتوى والقضاء وسيد أهل دمشق (١٣٥)، ويزيد بن يزيد بن جابر الأزدي إمام فقيه (١٣٤)، والعلاء بن الحارث الحضرمي الفقيه (١٣٦)، ويحيى بن الحارث الذِّماري المقرئ الدمشقي وعليه دارت قراءة الشاميين (١٤٥)، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي البيروتي (١٥٧) كان إمام أهل الشام وعالمهم قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وصار يُعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي الشام وعمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة، ثم تناقص بمذهب الإمام مالك. وكان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من أمر السلطان. وكان مع علمه بارعًا في الكتابة والترسل.

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن حَلْبس وثور بن يزيد الكلاعي الحمصي، وكان ثقة في الحديث (١٥٣)، والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الأوزاعي وكانوا يقولون: علم الشام عند إسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، فأما الوليد فمضى على سننه ميمونًا عند أهل العلم متقنًا صحيح العلم (١٩٥ أو ١٩٤)، ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدام الصنعاني وأبو مَرْثَد الغنوي وابراهيم بن جدار العذري ومبشرين إسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأمونًا (٢٠٠)، ويحيى بن عمرو السَّيْباني من أهل الرملة (وسيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (١٤٨)، وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس، وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي

دمشق (١٦٦)، والهِقْل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥)، وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧)، ونمير بن أوس الأشعري المحدث (١٢١)، وربيعة بن يزيد القصيري من أئمة التابعين (١٢٢)، وإبراهيم بن أبي عبلة من علماء التابعين (١٥٢)، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥)، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧)، ومحمد بن الوليد الزُّبيدى كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨)، ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضيًا بدمشق (١٨٣)، وبقية بن الوليد الحمصي المحدث (١٩٧)، وأسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧).

وحرص المسلون في الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب، وكان من الأطباء في القرنين الأول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم بن أبي الحكم الدمشقي الطبيب وكان أبوه أبو الحكم طبيبًا في صدر الإسلام، وكان أبو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق. ومنهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكنائس الكبير، وتياذوق كان في أول دولة بني مروان ومشهورًا عندهم بالطب، ومنهم عبد الملك بن أبجر الكناني كان طبيبًا عالمًا ماهرًا يقيم في أول أمره في الإسكندرية؛ لأنه كان المتولي للتدريس بها بعد الإسكندرانيين، ولما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب.

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربي وواضع أساسه وكان عالمًا في كل فن من فنون الأدب (١٣٢) وهو الذى فك قيود الإنشاء وضبط أصوله وكان ختنه سالم، ويكنى أبا العلاء أحد الفصحاء

والبلغاء. وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر نُقل له وأصلح هو، وله رسائل ومجموع نحو مائة ورقة. ومن الكتاب قنان بن متى وابنه قيس وحفيده الحصين ومنهم أُسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخي ويقال الكلبي. ومن المشهورين بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب إلى منبج، وخالد بن عبد الله القسري الخطيب المفوه (١٢٦)، وأبو السامي وعبد الله بن خداش وأبو مسلم الشامي.

ومن الناقلين -أي المترجمين- جبلة بن سالم، وكان ناقلًا من العربي إلى الفارسي، ونقل بعضهم شيئًا من تواريخ الأمم عن الفارسية. ولم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف، وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية، جيد النقل فصيح اللسان، ومثل أبي عثمان الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة، وهلال بن أبى هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن إسحاق البغدادي المولد نشأ في الشام وتعلم فيه.

وللشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الأول والثاني، وكذلك في القرون التالية إلى يومنا هذا، وهم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغربية والتفصح فيها.

وكان أكثر النقل عن السريانية، وهذه نقلت عن العبرانية، وهذه نقلت عن اليونانية، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حلِّ رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقل عن نقل، وذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب

أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية ومنها إلى العبرية، ومن هذه إلى اللاتينية وكان التراجمة بادئ بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها إلى اللاتينية حرفًا بحرف. وقال نالينو: إن أكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافًا في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيرًا ما ترددوا في تعريف المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر، ومن المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا في القرن الثالث.

العلم والأدب في القرن الثالث

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة، وتجلى آثار النبوغ والتجدد؛ بل كان كالتتمة لبعض ما سمت له الهمم في القرنين الماضيين، وعلى صورة ربما كانت أضعف، زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقيت الشام بمعزل، راحت العلوم الفلسفية في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث وسرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما خنقها. وممن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصداً فلكيًا عمله له يحيى بن أبي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في أيامه، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين. وقام في الشام محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من المصنفات (٢٣٣)، وعبد الله بن ذكوان القارئ الحافظ (٢٤٢)، وهشام بن عمار خطيب دمشق وقارئها وفقيهها ومحدثها (٢٤٥)، وأحمد بن أبي الحواري من كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦)، ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الأثبات الثقات (٢٥٩)، وأبو زرعة الدمشقي النصري عبد الرحمن بن عمرو المحدث صنف كتبًا (٢٨١)، وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي وغيره من

الشاميين (٢١٨)، وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩)، والقاسم بن عثمان الجوعي شيخ دمشق وزاهدها (٢٤٨)، والحافظ زكريا بن يحيى السِّجْزي المعروف بخياط السنة (٢٨٧)، وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مَزْيد العذري البيروني كان من أهل العلم والرواية، وكان الأوزاعى يقول: فيما عرفت ما حمل عني أصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من أهل العلم والرواية (٢٧٠)، والإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومائة وتوفي بمصر سنة (٢٠٤) وهو أول من صنف في أصول الفقة. ومن أعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذُكر عند عبد الله بن أحمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف. وعبد الله بن إسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب البيروتي وآدم بن أبي إياس العسقلاني من مشايخ البخاري (٢٢١)، وهشام بن الغاز بن ربيعة الجُرشي الصيداوي (٢٥٦)، وأبو بكر محمد بن بركة القنسريني الحافظ ببرداعَس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن رجاء المصيصي ويوسف بن سعد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي.

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألوفًا من الأحاديث بأسانيدها، وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية، ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والإسناد جميعًا، والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد. وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب

السنة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين.

وممن كان في الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق. وعثمان بن خُرَّزاذ الأنطاكي المحدث، وأبو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعرف بابن جميع الحافظ المحدث، وأبو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ، وأحمد بن الخليل الحلبي المحدث وأحمد بن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن إسحاق الصُّفَّرى المحدث ومومل الرملي وأبو توبة الربيع بن نافع ويزيد بن خالد الرملي روى عن الليث بن سعد والمفضل ابن فضالة، وروى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وأبو زرعة الرازي وموسى بن سهل الرملي (٢٦٢)، وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط، ويقال: طويث أبو الفضل البزاز الرملي الحافظ. سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحيمًا وهشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان، ووارث بن الفضل العسقلاني، ونوح بن أبي حبيب القُومَسي.

ومن الشعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سَلَمْيَة وإدريس بن يزيد النابلسي الأديب الشاعر، وأدهم بن محرز، والعتابي وأبو تمام. واشتهر في هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذى بنى لابن طولون ميناء عكا.

الأدب في القرن الرابع ونهضته على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري

قلَّ في القرن الثالث في الشام الشعراء والأدباء، ولم ينبغ فيه إلا رجال في الحديث، والمغازي والفقه، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الأدب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير، اللهم إلا إذا كان على عهد الأمويين، ولم تبلغنا جميع أخبار شعراء سيف الدولة بن حمدان في حلب، وقد قصده نوابغ الشعراء والأدباء، قال الصفدي: وكانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب؛ لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين من حوله لم يأت بعدهم مثلهم.

ذكر الثعالبي من شعراء الشام المحدثين العتابي ومنصور النمري والأشجع السلمي ومحمد بن زرعة الدمشقي وربيعة الرقي قال: على أن في الطائيين (أبي تمام والبحتري) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية وهما هما.

ومن مولدي أهل الشام المعوج الرقي والمريمي والعباس المصيصي وأبو الفتح كشاجم والصنوبري وأبو المعتصم الأنطاكي، وهؤلاء رياض الشعر وحدائق الظرف. ويقال: إنه لم يجتمع بباب أحد الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع بباب سيف الدولة م شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليهما ما ينفق لديها، وكان أديبًا شاعرًا أورد صاحب اليتيمة من شعرائه ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام.

وكان في هذا القرن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بالشام من اليهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى وانحطت مدن الشام في العلم انحطاطًا كثيرًا ومنها حمص. ذكر السيوطى أنه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين وإلى أيام حَريز بن عثمان وشعيب بن أبي حمزة ثم إسماعيل بن عياش وبقية وأبي المغيرة وأبي اليمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشى ثم عدم بالكلية.

كان أبو فراس الحمداني الذى قال فيه الصاحب بُدئ الشعر بملك وختم بملك؛ يعنى امرأ القيس وأبا فراس -ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمنبج تغل ألف دينار. ولطالما أعطاه وأعطى الشعراء في بابه ولا سيما أبو الطيب المتنبي عشرات الألوف من الدنانير دع الإقطاعات والضياع، وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالدين من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانة كتبه كما كان عليها أيضًا السلامي والببغاء والوأواء. وربما قلَّ في الملوك من مُدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى إن كلًّا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبى الحسن على بن محمد السميساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت. وكان أبو محمد الفياض كاتبًا لسيف الدولة ونديمه معروفًا ببعد المدى في مضمار الأدب وحَلبة الكتابة، أخذ بطرفي النظم والنثر، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحدًا؛ لحسن عبارته، وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد.

ومن خواص شعراء سيف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة، ومنهم أبو الفرج عبد الواحد الببغاء من أهل نصيبين ومن شعرائه أو ما قربوا من عصره الخليج الشامي

والوأواء الدمشقي وأبو طالب الرقي وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعمق، وأبو القاسم الحسن الواساني الدمشقي، وأحمد بن محمد الطائي الدمشقي، وابن أبي الجوع وابن رشدين وكشاجم (وأقام كشاجم في الرملة كثيرًا فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري وأبو الفتح البكتمري وأبو الفرج العجلي وأبو حصين الرقي وأبو الفرج سلامة بن بحر. ومن علماء الأدب واللغة ابن خالويه وابن جني. ومن الشعراء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها. وكان جعفر بن ورقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت إمرة وتقدم وآداب، وكان المقتدر يجريه مجرى بني حمدان وتقلد عدة ولايات، وكان شاعرًا كاتبًا جيد البديهة والروية، ومن الشعراء منصور وأحمد ابنا كَيْغَلَغ وأبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار وأبو زهير المهلهل نصر بن حمدان والمغنم المصري، واسمه أبو الحسن محمد الشعباني وأبو عبد الله محمد بن الحسين وأبو نصر بن نباتة التميمي والشيظمي وأبو العباس الصُّفَّرى وأبو العباس الناشئ وأبو نصر البنص، وأبو القاسم الرقي المنجم الفلكي وعبد العزيز بن نباتة السعدي كان شاعرًا مجيدًا وله في سيف الدولة غرر القصائد (٤٠٥)، ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن أبي حصينة المعري (٣٢٧)، وممن اجتمع بسيف الدولة وجالسه مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفارابي صاحب التآ ليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩).

وأهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي حكيم العرب وأديبهم، وقد كانت المعرة في أيامه كعبة القصاد، من طلاب الآداب، جذبهم إليها أبو العلاء، فجعل بلده دار حكمة وأدب، كما جعل سيف الدولة في القرن الذي قبله مدينة حلب مجمع الأدباء

والشعراء بإحسانه ومشاركته. أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعري إلى الآداب العربية أي إحسان، وهو من بيت أدب وفضيلة، كان أبوه عبد الله بن سليمان لغويًا شاعرًا، وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين، وكان الشعر والأدب متسلسلًا فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة. ومن شيوخ أبي العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوي، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبي، ومن تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور، وأبو يعلى عبد الباقي بن أبي الحصين، وأبو محمد عبد الله الخفاجي، ورشأ بن نظيف بن ما شاء الله المقري، وهذا كان أول من أنشأ في دمشق دارًا للقرآن في حدود سنة (٤٤٤)، والخطيب التبريزي، والحسن بن علي بن همام والأمير أبو الفتح بن أبي حصينة وعشرات غيرهم من أهل المعرة وكفر طاب وحلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس والرقة وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته، وكان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم. وممن صحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيرًا علي بن القاضي التنوخي كان من أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء. ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر وتغالي الناس في الشعر والأدب ما قيل من أن سبعين شاعرًا رثوا المعري على قبره يوم مات، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد.

وقام في هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي مقرئ أهل الشام (٣٣٨)، ومن المحدثين عمر بن علي العتكي الأنطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول، وعبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦)، ومحمد ابن عبيد الله يعرف بابن أبي الفضل أبو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩)، وأبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيلي

التميمي محدث دمشق كان يسكن في ربض باب الفراديس في طرف العقيبة (٣٢٨). قال القاسمي وإليه تنسب مقبره الدحداح ، وعمر بن حسن الخرقي الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة، وأحمد بن شرام الغساني أحد النحاة المشهورين بالشام (٣٨٧)، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع، وأبو مسهر البيروتي المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١)، وأبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب (٣٥٩)، والمنجم الصابي البلعبكي وأبو القاسم علي بن أحمد الأنطاكي كان رياضيًا مهندسًا وله تصانيف جليلة، وكان مشاركًا في علوم الأوائل (٣٧٦)، وإبراهيم الأزدي العجلي الأنطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨)، ومحمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (٣٢٧)، ومحمد التميمي المقدسي والحافظ أحمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠)، وأبو الحسين كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي وعيسى الرقي المنجم الطبيب، وكلاهما من أطباء سيف الدولة. وكان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق رزقًا بسبب الطب ورزقًا بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين. وعبد الله بن عطية المقري الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣)، وعبد الرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطيب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة (٣٧٤)، وقام في حلب أربعة من الشعراء المعدودين؛ وهم أبو الحسن المستهام الحلبي وأبو محمد الماهر الحلبي وابن الفتح الموازيني الحلبي وأبو الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي. ومن الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعيي واسمه محمد بن أحمد وأبو مسكين البردعي شاعر محدث يتنقل في البلدان وكان مجودًا،

والخليع الرقي واسمه محمد بن أبي الغمر القرشي. ومن المهندسين الرياضيين المجتبي الأنطاكي (٣٧٦) وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ. وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ.

الآداب في القرن الخامس

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عُنوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي والطب، كما امتاز بأن نبغ فيه في الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب. وقد انتقلت من كتبهم وأفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام. ويصح أن يقال: إن العلم اقتراب من العلوم المادية في هذا الدور، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الأحاديث والعناية بالدين، وتم تدوين أقوال أرباب المذاهب والشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا. وممن نشأ في هذه الديار أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب وله عدة تآليف (٥٠٠)، ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠)، ورضوان الخراساني الرياضي، ومحمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتابًا في ركاية الزوال بدمشق ومعرفة طلوع الفجر بالمنازل القمر (٤٠٩)، وجورجس بن يوحنا البيرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات. ومن المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخًا للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق. ومبارك ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء

من هذا النوع رجعوا إليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة (٤٩٠) في صور. ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحافظ قالوا: كان يذاكر بمائتي ألف حديث. قال غيث: سمعت جماعة يقولون: ما رأينا أحفظ منه (٤٤١)، والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له: الصيداوي (٤٠٢)، وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الأنصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق وله تصانيف (٤٨٦)، وسلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ ألف تآليف (٤٨٠)، والحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعية مشهور بنثره (٤٨٢).

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب، وأبو اليمن المسلم بن الخسن بن غياث الكاتب الحلبى النصراني كان صاحب الديوان بحلب، وتادرس بن الحسن النصراني؛ كان وزير صالح بن مرداس، وعبد الله بن أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان، وعبد العزيز بن أحمد الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦)، نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (٤٩٠)، علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وطلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح وقالوا: لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم: أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام. ومن مشاهيره الحسين بن علي بن شواش الكناني المقري (٤٩٧) والحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦)، والخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠)، وأبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم (٤٥٦). ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨)، وأبو الفتيان

بن حيوس الحلبي الشاعر، ومحمد بن سنان الحلبي الشاعر، وأبو مشكور الحلبي الشاعر، وأحمد بن فضالة الدمشقي شاعر، وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب لأبي العلاء المعري رسالته المشهورة، فأجابه عنها برسالة الغفران، وكلا الرسالتين مطبوع.

ومما يذكر في هذا القرن أن القاضي جلال الملك بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة لتكون مركزًا من مراكز التشيع، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهز هذه الجامعة الدينية بمائة ألف مجلد، وربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم.

العلم والأدب في القرن السادس

دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم في فنون مختلفة، وكانت بالشعر أقل من عصر سيف الدولة وعصر أبي العلاء المعري، وإن كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتهما ممن يجيزون عليه ويعجبون ويترنمون بسماعه، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون، ومما عُني به نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن أبي عصرون، يبني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الإحسان ويدر عليهم الرواتب. وقد أحصي فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه، كان يعطيهم من صدقاته. ومن كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين: ومما يجب أن يعلم المولى أن

أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعًا وراتبًا يتجاوز مائتي ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار.

وأزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس، ومنها نشأ أبو الفرج ابن العبري صاحب التاريخ المطبوع. وتعلم كثير من المحاربين والقواد والأمراء من الصليبيين اللغة العربية في الشام. في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها: أما بشأن اللغة (أي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة؛ وهو أن لغة الأكثر تمدنًا أثر أهلها في غيرهم. وكان أكثر الأمم تمدنًا بلا مراء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان. وقد تعلم قليل جدًّا من العرب والترك والفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض التراجمة الرسميين.

وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم إلى فلسطين. إلى أن قال: ولا ريب أن مجاورة التمدن الإسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل. ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام وشروح أرسطو حتى حمام الزاجل والشعار Armoiries وأدوات الموسيقى والأزياء والثياب والزهور والبقول.

وبعد فإذ حدث أحيانًا أن الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى إلا بأسماء المدنية الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان وثياب دمشق، فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة اهـ.

ونبغ في هذا القرن أبو المجد محمد بن أبي الحكم، وكان طبيبًا مهندسًا فلكيًا (٥٧٠)، وأبو زكريا يحيى البياسي من أطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله أستاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة، وابن النقاش هذا كان أوحد زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه، وكان يعالج أيضًا كتابة الإنشاء (٥٧٤)، وأبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩)[1]، وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تآليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠)، وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧)، وقد نعى على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاقم الخطب في هذا الشأن.

وأبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقي وهو مهندس طبيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النوري الكبير، اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي لجامع دمشق، وعلى بن عبد الباقي بن أبي جرادة العقيلي الأنطاكي الحلبي عالم بالأدب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف وأربعين وخمسمائة، زين الدين علي بن غانم الأنصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحنبلي كان من أغنياء أهل العلم وله رأي صائب، وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص، ومحمد بن طاهر المقدسي ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق (٥٠٧)، والحافظ أبو القاسم علي

---

(١) قال العماد في الخريدة: إن أبا الحكم كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون جملًا المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم.

بن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهائها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١)، وكتابه من أعظم المفاخر في التاريخ معدن أدب وركاز علم، وحمزة بن أسد أبو يعلي التميمي الدمشقي العميد بن القلانسي الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع، تولى رياسة دمشق وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب توفي في عشر التسعين وأربعمائة، وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦)، وأبو البيان محمد بن محفوظ القرشي له عدة تصانيف (٥٠١)، ومخلص الدين أبو البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي كان أمينًا على خزائن نور الدين، وكان كاتبًا بليغًا وشاعرًا مجيدًا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، وعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة، ومحيي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨)، وعماد الدين الأصفهاني العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف ومنها الفتح القدسي المطبوع (٥٩٧)، ومحمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (٥٧٢)، وعبد الله بن أبي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥)، وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨)، وسُلَيم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧)، والحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالًا في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧)، وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته، ومجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي والد بني جهبل الفقهاء الدمشقيين كان إمامًا في الفقه والحساب والفرائض، ومحمد بن خضر

المعري شاعر، وتقي الدين عبد الغني الجماعيلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠)، والحسين الأسدي مسند دمشق (٥٥١)، وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨)، والحسن بن هبة الله بن صصري التغلبي المحدث (٥٨٦)، وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤)، وتقية بنت غيث الأرمنازي الصوري الشاعرة الأديبة ولها شعر سائر (٥٧٩)، وعلي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤)، وأبو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨)، وموسى البلاغاشاني الفقيه (٥٠٦)، وعلي بن إبراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨)، وهبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (٥٢٤)، وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢)، ونصر الله بن محمد المصيصي الدمشقي العالم (٥٤٢).

ومن الشعراء والأدباء أحمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب (٥١٧)، وأحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨)، وطراد بن علي المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤)، وأبو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه، وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد بن حرب النحوي الأديب (٥٨٠)، والحسين ابن رواحة الأنصاري الحموي الفقيه الأديب الشاعر (٥٨٥)، ومسلم بن خضر ابن قسم الحموي الشاعر، والحسن بن أبي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاة له مصنفات في الفقه والأصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨)، وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧)، وعلوي بن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (٥٩٦)، وأسامة بن منقذ صاحب كتابي الاعتبار ولباب الآداب، وكلاهما مطبوع شاعر كاتب، وزرعة بن موسى أبو العلاء الطبراني النصراني كاتب الأمراء بني منقذ كان معاصرًا لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر.

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة، وهي صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الآمدي الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجرؤ أن يقرئ أحدًا شيئًا من العلوم الحكمية، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها وقل النابغون والمشتغلون بها، ولم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام، ولم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الآمدي، ولقد أبان رنان كيف أن الفكر الديني لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فخنق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردحًا من الدهر، وارثة المدنية اليونانية، قال: وأوربا مدينة لمدنية العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى.

العلم والأدب في القرن السابع

لما خرب التتر بغداد سنة (٦٥٦) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق والقاهرة. وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الإخصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبغ الشام طبقة عالية غدت تآليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية، ومرجعًا ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف، فمن المؤرخين عمر بن أبي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (٦٦٠) وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضي قضاة جمال الدين أبي غانم هبة الله بن قاضي القضاة مجد الدين أبي عبد

الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة، بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة وعلم. ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر، وله تآليف أكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، ومن كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء، وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء والمشترك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦)، وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير المظفري في الملة الإسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحيم البارزي قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها. وفي حماة أيضًا علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين بن واصل (٦٩٧) كان إمامًا مبرزًا في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والهيئة ألف تاريخًا في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الإنبرورية في المنطق صنعها للإنبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية وانبولية وأنكبردة لما توجه إليه رسولًا في أيام الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩). ونبغ من المهندسين إبراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، واسمه لا يزال منقوشًا على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل، وهو الذي هندس القصر الأبلق الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على أنقاضه، ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر بن أيوب خلف عدة مصنفات منها المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء، وكان في خدمته قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك. وجاء الناصر داود ابن

الملك المعظم وكان شاعرًا أديبًا وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم، وجاء الأمجد بهرام شاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان شاعرًا رقيقًا وله ديوان (٦٢٨)، ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المؤرخ المدقق وصاحب وفيات الأعيان المنقح المطبوع (٦٨١)، وأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (٦٦٨)، وعبد الرحمن أبو شامة لهُ عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والأول مطبوع، ويوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ، المطبوع منه الجزء الثامن وهو الأخير، أقام زمنًا في دمشق (٦٥٤)، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقه في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها إلا المدبجات. ومن النوابغ في دمشق عز الدين الإربلي الفيلسوف الضرير كان بارعًا في الفنون الأدبية رأسًا في علوم الأوائل يقرئ المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠)، وعاش في دمشق أيضًا حكيمان عظيمان من حكماء الإسلام وماتا فيها هما سيف الدين علي الثعلبي الآمدي سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية والمبادئ المنطقية اقام سنين كثيرة في حماة مستترًا ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه إلى الانحلال. وقد صنف في أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام ومات في دمشق سنة (٦٣١)، والثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلس الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القول منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨)، ونبغ في دمشق شمس الدين الخوبي العالم في الحكمة والشرع والطب وغيره وله تآليف (٦٣٧)، ورفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم

الحكمية وأصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب، وله تآليف (٦٤١)، وإسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن العلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تآليف (٦٦٧)، وأخوه جمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متفنن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب، ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكمية وأديب له من الكتب شرح التوراة (٦٢٤)، والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣)، ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار عالم بالطب، وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، ونجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضًا، ألَّف وله ثلاث عشرة سنة في الرد على عبد اللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١)، وعلاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي صاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يمليها من حفظه وكان مشارًا إليه في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق. وشمس الدين بن المؤيد العُرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد، وكان العُرضي وابنه محمد من علماء الفلك، وتولى مؤيد الدين الأرصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في ألمانيا، وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣)، وعلي بن محمود اليشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك وحل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠)، وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية (٦٥٠)، ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العالمة، وكانت أمه عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢)، عز الدين ابن

السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد. يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١)، وعلي بن خليفة بن أبي أصيبعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦)، وعبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزًا في الحكمة والطبيعى والطب وأصول الدين والفقه والخسرو شاهي من أصحاب التصانيف الجليلة في المنطق والحكمة، ومن تلاميذ فخر الدين الرازي وعفيف الدين التلمساني الدمشقي أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠)، وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته (٦٢٠)، وأحمد ابن وهبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩)، وكريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسندة الشام أم الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت الحبقبق (٦٤١)، وفاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدثة (٦٧٨)، وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣)، وست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية المحدثة، وست الكتبة بنت الطراح المحدثة وزينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية محدثة، وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدثة (٦٩٧)، وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق وخصوصًا في العربية، وعبد الوهاب ابن سحنون طبيب وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤)، وزيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفنن عُرف بعلو السماع (٦١٣)، وعلم الدين السخاوي المقري النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧)، وإبراهيم بن أحمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦)، والقاسم بن أحمد المرسي اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١)، وعبد الكريم بن الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢)، وعبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الإسلام له تصانيف (٦٦٠)، والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢)، ورشيد الدين الربعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧)، ومحمد بن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب

والفرائض (٦٩٣)، وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجيلي مسند دمشق (٦١٨)، والحافظ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله الأنماطي المحدث (٦١٩)، ومكرم بن محمد بن أبي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥)، وإسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦)، وعبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥)، والقاسم بن أبي بكر الإربلي المقري المحدث (٦٨٠)، ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠).

وجاء من العلماء في الشام عبد الله الجماعيلي الإمام في الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم والمنازل (٦٢٠)، ويعقوب بن صقلانت المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكي وعرف بها (٦٢٦)، ونجم الدين النخجواني كانت له عارضة قوية في علوم الأوائل ونفيس الدولة بن طُليب الدمشقي وولده صفي الدين النصراني الملكي ومحمد بن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠)، وأبو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير المواليد (٦٠٤)، وأحمد بن هبة الله المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي وعبد الله اليونيني المحدث، ونجم الدين القمراوي عالم بالحكمة والشريعة، وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشريعة وهما اللذان ذهبا إلى الموصل مختفيين ليلقيا الفيلسوف الأكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة، وكان عجز العلماء عن حله، فسألهما عن موطنهما فقالا: الشام فقال: من أي موضع منه؟ قالا: من حوران فقال: لا أشك أن أحد كما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني. وفي هذا دليل على شهرتهما في العلوم الحكمية والدينية. وقمرا مزرعة يقال لها: قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة وهما من قرى صرخد في جبل حوران.

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفر طاب التي خربت في أواخر الخامس. قال ابن العديم: كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به. وهاتان المدينتان أصبحتا الآن قريتين حقيرتين، وكان في قرى غوطة دمشق علماء وفقهاء ويختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفر سوسة وصنعاء دمشق والربوة والنيرب ومن حدث بهما وأهل الحميريين وقبيبة وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابا وحرستا وكفر بطنا ودقانية وحجيرة وعين ثرماء وجديا وطرميس وبيت لهيا وبرزة. ومن هذه القرى ما دثر الآن، وذكر المحدثين من أهل مَنين وأهل بعلبك مما دلَّ على العناية بالحديث في القرن السادس.

ومحمد بن مياس العُرماني الشاعر الأديب وموسى القمراوي الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥)، ومسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن عدي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤)، والرشيد البصروي سعيد بن علي أحد أئمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤)، وعلي بن بلبان الكركي (٦٨٤)، والفخر البعلبكي عبد الرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧)، وعبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي: لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح وبرع في الفقه وحدث كثيرًا (٦٦٢)، ونبغ في حماة ابن بركات له تآليف في التاريخ، وأبو بكر بن الخيثمي الحموي كان إمامًا في الأدب ومحمد بن المظفر بن أبي بكران الحموي عالم الأئمة الفقيه المحدث، وعبد العزيز بن حجة الحموي الشاعر الأديب، وأبو المحاسن محمد بن نصر بن عُنين الدمشقي الشاعر (٦٣٢)، ومحمد بن أبي الفضل الدَّولعي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥)،

ومحمد شمس الدين الأنصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠)، ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨)، ومحمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (٦٧٧)، ومحمد بن عبد المنعم التنوخي شاعر (٦٦٩)، وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي صاحب الديوان المطبوع (٦٠٤)، وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥)، وتقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥)، وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦)، وأبو المحاسن الشاعر الحلبي (٦٣٥)، ومحمد بن أبي اليسر التنوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩)، وعبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري البدري الدمشقي إمام فقيه ناظم ناثر له تصانيف جيدة (٦٩٠)، وحمد ابن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣)، وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠)، وعبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤)، ومحمد بن عبد الواحد السعدي المحدث الأصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣)، والحافظ خالد بن يوسف النابلسي (٦٦٣)، وأبو السخاء فتيان الحلبي النحوي، ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠)، ويحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث، وأحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري المطبوع وشرح تصريف الملوكي لابن جني المطبوع منه المتن (٦٤٣). وكانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة (٦٢٦) للاشتغال العلم أُمّ البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين. ومما انفرد به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق، فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذي بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية.

الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلم في القرن الثامن

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده، أراد إرجاع الدين إلى نضرته الأولى، وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتنمسون، فآذوه وعذبوه، وسجنوه ونفوه، ونعني به شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية نابغة النوابغ في الشرع وصاحب التآليف العديدة الممتعة المطبوعة، وإمام المعقول والمنقول، وسيد العلماء ورأس الفقهاء (٧٢٨)، وإن دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية، ودفنت أعظمه في تربتها، ولكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فأكثروا من أذاه؛ طمعًا في نيل الحظوة من العامة والملوك واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقلوه زمانًا في القاهرة والإسكندرية ودمشق، والأمة وعقلاء علمائها تقدسه حتى لقي ربه. وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام «لوثيروس» صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية؛ بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته، ومصلح الإسلام أخفق وياللأسف.

قال السيوطي: إن دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم، ثم إلى أيام أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم وعصرهم. وهي دار قرآن وحديث وفقه، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين وأيام محدثها ابن عساكر والمقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزي وأصحابهما.

ونبغ أفراد في هذا العصر ولاسيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث، ومنهم بدمشق البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير (٧٤٠)، والحافظ جمال الدين المزي صاحب التصانيف (٧٤٢)، والحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الإسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات الحفاظ، وهذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة (٧٤٨)، والحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التآليف ومنها تاريخه المطول المطبوع (٧٤٤)، ومحمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٥١)، طبعت بعض كتبه في السنة ومن أهمها إعلام الموقعين. وأحمد بن فضل الله العمري الدمشقي إمام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والأسطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الأبصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان، ومسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩)، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافي بالوفيات (أجزاء)، ونكت العميان وشرح قصيدة ابن زيدون والأرب من غيث الأدب وتشنيف السمع والغيث المنسجم ونسب الجراكسة ولوعة الشاكي وجنان الجناس إلى غير ذلك (٧٦٤)، والملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء وكان عالمًا فقيهًا مؤرخًا جغرافيًا فلكيًا منها تاريخه ووكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢)، وكان يفضل على العلماء كثيرًا أوى إليه أثير الدين الأبهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به. وبعمل الملك المؤيد أبي الفداء وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالًا يفتخر بهم في تاريخ العلم وكانت أشبه بالقرى في القرون الأولى للفتح الإسلامي،

ومثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك العصور، وكثيرًا ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة. ومن قرأ المفصل تعلم النحو والأدب معًا، وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأخمد في الدولة الأشرفية. ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الأسباب للنيل من المجددين.

وجاء في هذا العصر أبو بكر محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي كان يعرف الرمل والأوفاق ونحو ذلك من العلوم، وهو صاحب نخبة الدهر في القوزموغرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧)، وأبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد له تآليف كثيرة، ومحمد الأكمل بن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤)، ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤)، وعمر بن الوردي المعروف بابن أبي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهًا أديبًا (٧٤٩) ، وعلي بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكي الدمشقي (٧٧٧)، ويعرف أيضًا بالمطعم الفلكي، كان أوحد زمانه يعرف تطعيم العاج وعالمًا بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور وضعًا وأغربها، وله الزيج المشهور والأوضاع الغريبة التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال: إن دمشق زينت عند وضعه، وفي تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب

والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها، ويعرف علم الخيط في المزولة وتركيبها.

ومن المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد التقي المهندس كان معاصرًا لابن فضل الله وحدثه بأحاديث عن الجامع الأموي وشهاب الدين أحمد الحموي النقاش كتب الختمة الشريفة من أولها إلى آخرها على خوصة مفصلة الأجزاء والسور. ومن المحدثين الحافظ علي بن محمد اليونيني البعلي (٧٠١) قال الزبيدي: وله ولأبيه ترجمة حسنة وإخوته البدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا، ومن ولده الصدر عبد القادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحديث، وعمر بن إبراهيم العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧)، وحسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تآليف منها درة الأسلاك في دولة الأتراك وأكثر كتبه مسجعة (٧٧٩)، وعلي بن مظفر الوداعي المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية في خمسين مجلدًا وضعها في المدرسة السميساطية وهي بخطه في فنون مختلفة (٧١٦)، وقاضي القضاة بدمشق عبد الله المقدسي (٧٣١)، والجلال القزويني إمام البيان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩)، وعلي ابن سليم بن ربيعة الأذرعي فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر ألف بيت وشعره كثير (٧٣٢)، وعبد الله بن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣)، وأحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥)، ومحمد بن أبي بكر الأرموي القرافي صاحب التآليف (٧١٤)، وصلاح الدين خليل ابن كيكلدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١)، وشيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبي الحزم سبط السعلوس (٧٣١)، وأحمد بن البرهان له مصنفات

(٧٣٨)، ومحمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤)، وشيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢) وتصانيفه كثيرة. ومحمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون وله عدة مصنفات (٧٣٣)، ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن أبي العشائر (٧٨٩) له عدة مصنفات منها تاريخ قنسرين، وعبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الأبهري وكان له يد طولى في الرياضي والوفق والعلميات ومشاركة في فنون (٧٣٣)، وهبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨)، وعثمان بن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠)، وإسماعيل بن محمد بن جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقراءات العربية درس في عدة مدارس بحماة وشهاب الدين السبكي الفقيه له تآليف (٧٧١)، والكمال ابن الزملكاني الفقيه الأصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧)، والأمير العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (٧٣٠)، وسليمان بن أبي العز الأذرعي الفقيه (٧٠٧)، والقاسم بن محمد الإشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩)، ومحمد بن سليمان الصرخدي المصنف الجامع بين أشتات العلوم (٧٩٢)، وقاضي القضاة يوسف المحجي (٧٣٨)، وابن أخيه محمود بن محمد ابن جبلة الخطيب ومحمد بن إسماعيل الكفر بطناوي من فقهاء المدارس، وقاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني ومحمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب، ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠) وأسمى بنت محمد بن سالم بن صصري التغلبية المسندة المحدثة (٧٣٣)، وزينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء، وست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدثة كانت حية سنة (٧٦٦). ومن الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (٧٣٢)، وأحمد بن الصلاح البعلبكي الطبيب في بعلبك صاحب التآليف.

ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧)، والحسن بن علي المحدث الكاتب المجود (٧٣٢)، ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي الأديب الشاعر له تآليف (٧٢٢)، وأحمد أبو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١). ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل (٧٥٥)، وأحمد الأنصاري، إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه.

ويلاحظ أن أعلامًا من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله وبعده، وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال، والقرى ما زالت مادة المدن في العلم والأدب كما هي في الزرع والضرع، ومن مواطنهم اليوم من لا يعرف شيئًا مما يطلق عليه اسم العلم، وبعضها في جاهلية جهلاء، مثل زملكا وحرستا وكفر بطنا والمزة ويلدا وداريا وإزرع ومحجة ونوى والجيدور ويبرود والبقاع وعجلون وصرخد ومتان وقمرا وحسبان والكرك وجبرين ويونين وأنطاكية وصفد وبعلبك والمعرة وكفر طاب وشيرز. وتوشك بعض تلك القرى أن تدثر، وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه!

العلوم في القرن التاسع

بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملًا علميًا عظيمًا، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم، وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين، والسبب أن حكومة المماليك البرجية والبحرية كات تشتد في إرهاق المتفلسفة والمتفقهة على غير الأصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى أربعة أئمة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، فكان المخالف قليلًا يعزر على مذهب المالكية، والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم، ثم زادت الحال

اشتدادًا في أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر، وقتله لبعض العلماء، وحمله إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة. ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم، ومنهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات وغيره (٨٥١)، وأحمد بن علاء الدين حجي الحسباني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس في أخبار المدارس، ولعله الأصل لكتاب النعيمي في المدارس وله ذيل على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥)، وأحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية، ومن تآليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤)، وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وأمراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع، ونقل عن أحمد بن شباط الغربي الأديب المؤرخ أيضًا.

ومن الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشاميين نظير البيجوري في المصريين (٨٢٥)، وإبراهيم بن إبراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقاتهما له تآليف (٨٥٠)، وإبراهيم بن علي الحسني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق والحكمة وأدب البحث وغيرها.

وإبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣)، وعبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة (٨٣٤)، وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩)، وأبو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت إليه رياسة عصره (٨٣٢)، وعلاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور في منازل السرور مطبوع، وإبراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان إمامًا بالعربية والأدب والدين والتاريخ له نظم الدرر في تناسب الآي والسور في التفسير وعدة تواريخ للرجال، وعبد الله التنوخي الأمير

اللبناني المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك في الطب والفلك طبعت بعض رسائله في الوعظ (٨٨٤)، ومحمد بن أحمد الباعوني (٨٧١) له مؤلفات منها منظومات في التاريخ.

ونشأ في هذا القرن أحمد الطولوني كبير المهندسين، وكان أبوه وجده مهندسين، وخليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخًا للحوادث وغيره (٨١٥)، ومحمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره، وعبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن.

وأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذيبة (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الأعيان، وأحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة (المطبوع) وإنباء الغمر، وأحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي له أدب وشعر وبعض تآليف (٨٩٦)، وأحمد بن المحوجب عالم بالدينيات واللسانيات، وأحمد بن عبد الله العامري فقيه أصولي له تآليف، وأحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧)، وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات ومنها طبقات الحنابلة المطبوع، وابو العباس المالكي الفقيه العالم المفنن له عدة مصنفات، وعبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له مصنفات، ومحمد بن خليل القباقيبي الحلبي (٨٤٩) إمام في القراءات صنف فيها، وعبد الله ابن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥)، وقاضي القضاة العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥)، وصدقة الجيدوري المقرئ (٨٢٥)، ونور الدين أبو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تآليف كثيرة، ومحمد الجزري الدمشقي المقرئ صاحب المصنفات الجليلة منها كتاب الطبقات، والنشر في القراءات العشر طبعا (٨٣٣)، وعائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق (٨١٥)، وأبو البقاء البدري له تآليف (٨٨٧)، وعلاء الدين ابن خطيب

obeikandi.com

الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣)، وأبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان، وكان رئيس أُدباء عصره (٨٣٧)، وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض، ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تآليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره، وأحمد السرميني الحلبي الفلكي (٨٢٤) كان إمامًا في الهيئة وحل الزيج وعمل التقاويم، وعبد الملك البابي الحلبي (٨٣٩) علم بالقراءات له نزهة الناظرين في الأخلاق، وعز الدين ابن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التآليف (٨٥٠)، والبدر البشتكي محمد بن إبراهيم الدمشقي (٨٣٠)، وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام، وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) له عدة مصنفات، وعبد الله بن جماعة المقدسي صاحب التآليف (٨٦٥)، والبرهان الحلبي المحدث (٨٤١)، وعبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الأرض المقدسة (٨٦٧).

ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلت، وقد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥هـ: وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم، فإذا هم ينيفون على مائة وعشرة، وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور.

انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر

زاد انحطاط العلم في القرن العاشر، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين، وكانت الآداب

تسير إذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القديمة، وإذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك، مالت النفوس عن العلم، اللهم إلا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته وقليل ما هم. ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام أحدًا من أبناء العر ب، زاعمين أن العلماء العرب كثير وأنهم إن ولوا عربيًا من غير طريقهم، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم، وضاق الأمر على ملازمي الروم. وحصر الترك عنايتهم بالأستانة كما حصروها من قبل ببورصة، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم؛ بل جامعة ذاك العصر، كما قال جودت. وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون إلى القسطنطينية زرافات، ولذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب.

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة وفرفور والعمادي والنابلسي ومفلح. وممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها، وله عدة مصنفات (٩٣٥)، ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الأصولي النظار المؤرخ وله مائة وبضعة مصنفات (٩٨٤)، وعبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢). وامتاز في الدينيات محمد بن حمزة (٩٣٣)، وعلي بن إسماعيل بن عماد الدين (٩٧١)، وإسماعيل النابلسي (٩٩٣)، وإبراهيم بن عمر بن مفلح (٩١٧)، وكان فيه محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه ومنها المطبوع (٩٥٣)، وعبد القادر النعيمي المؤرخ المحدث ألف كتبًا كثيرة منها الدارس (٩٢٧)، وعبد الباسط العلموي اختصر بعض كتب النعيمي

وزاد عليها ومنها مختصر الدارس (٩٨١)، وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار (٩٨٧)، وبهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠).

ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التآليف (٩٥٠)، ومحمد بن مكي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨)، وعرف بالمهارة في الفقه وغيره، وأبو بكر البلاطنسي (٩٣٦)، وأبو بكر محمد القاري (٩٣٥)، وأبو الفتح البستري (٩٦٢)، وأحمد بن محمد الشويكي له تآليف (٩٦٦)، وإسماعيل الكردي الباني عالم بالمعقولات (٩٥٦)، وعثمان الآمدي وهو خطيب متفنن (٩٨٥)، ومحمد بن محمد عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦)، وأحمد بن أحمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩)، وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والأصلين والفقه (٩٩٨)، ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧)، ومحمد بن منيعة (٩٠٤)، ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢)، ومحمد الكفرسوسي (٩٣٢)، ومحمد الميداني عالم بالقراءات والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣)، وإبراهيم بن الهلالي فقيه محدث (٩١٦)، وأبو بكر ابن قاضي عجلون إمام مفنن (٩٢٨).

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ القدس والخليل المطبوع، وبرهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢). وفي غزة أبو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه والأصول وغيرها، وإبراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة كتب (٩٥٩). وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل والكتب الكثيرة في الفنون

المختلفة، وهو أشبه بالسيوطي في مصر بكثرة تآليفه وتنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق. وفي حلب محمد ابن الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تآليف منها تأليف في تاريخ حلب (٩٧١)، وعبد البر ابن الشحنة الحلبي الأصولي الفقيه (٩٢١)، وعمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات (٩٣٦). وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه (٩٢٣)، ونشأ في حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب والميقات والهيئة والوفق والموسيقى والطب، وهو صاحب شجرة الإفادة بشرقية جامع حلب الأعظم. وفي حماة محمود بن أبي بكر المعري الحموي الحلبي الفقيه. وفي دمشق هاشم بن السيد الطبيب ناصر الدين السروجي (٩٦٤). وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تآليف. وفي دمشق موسى بن يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين الدمشقي الشافعي، ألف تاريخًا في مجلد وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠).

ومع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمزان شيخة المدرستين العادلية والزجاجية معًا انتهت إليها رياسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (٩٦٦)، وبوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨)، وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثة المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تآليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٢٢).

الآداب في القرن الحادي عشر

أمّا القرن الحادي عشر فشبيه بتاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد والاكتفاء بالموجود؛ لكن عدد العالمين والمتأدبين كان أكثر على ما يظهر أو أنه دون كله ولم يفقد، فقد نشأ في دمشق أحمد بن محمد

الغزي فقيه له بعض التآليف (١٠١٧)، ومحمد أكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخًا ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١)، والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التآليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١)، وأحمد بن سنان القرماني الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثارالدول المطبوع (١٠١٩)، وعبد الوهاب الفرفوري الفقيه (١٠٧٣)، وأحمد بن أبي الوفاء بن مفلح الحنبلي الفقيه المحدث عارف بالفرائض والحساب والتاريخ (١٠٣٨). ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦). ومن علماء العربية محمد الخوخي (١٠٢٢). وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في الفقه وغيره (١٠٨٨)، ومحمود الباقاني له عدة تصانيف (١٠٠٣)، وأبو بكر ابن عبد عُرف أبوه بمنلا جامي (١٠٧٧)، وأحمد بن محمد الزريابي فقيه المالكية (١٠٥٠)، وكمال الدين بن مرعي العيتاوي الفقيه (١٠٨٦)، ورمضان العطيفي الفقيه النحوي الراوية (١٠٩٥)، وعبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثري (١٠٩١)، ويحيى الشاوي له تآليف، وشمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣)، والشاكر الحموي كان متصوفًا ناظمًا وناثرًا وله ديوان في ثلاث مجلدات.

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه أبو بكر بن منصور العمري (١٠٤٨)، وإبراهيم الصالحي الشاعر المعروف بالأكرمي (١٠١٢)، وعمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه أبي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف بالطب (١٠٦٥)، وإبراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨)، وأبو بكر ابن أحمد المعروف بابن الجوهري، ومحمد الكريمي (١٠٦٨)، وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١)، وعبد اللطيف البهائي شاعر متفنن (١٠٨٢)، وعبد اللطيف بن المنقار شاعر (١٠٥٧)، والحسن البوريني الشاعر اللغوي له تآليف منها تراجم رجال

عصره وشرح ديوان ابن الفارض المطبوع (١٠٢٤)، وأحمد العناياتي الشاعر (١٠١٤)، وأحمد بن الشاهيني الأديب اللغوي (١٠٥٣)، وأحمد الصفوري الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣)، وأحمد ابن محمد المنقار أديب شاعر (١٠٣٢)، وإسماعيل النابلسي الفقيه له بعض التآليف (١٠٦٢)، ودرويش محمد بن أحمد الطالوي الدمشقي الأديب (١٠١٤)، ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠)، وشهاب الدين العمادي شاعر منشئ (١٠٩٨)، وعبد الحي العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن أخباري أثري له شذرات الذهب في التاريخ مطبوع (١٠٨٧)، وعبد الرحمن بن النقيب منشئ شاعر (١٠٨١)، وإبراهيم العمادي أحد بلغاء الشام المذكورين (١٠٩٨)، وأحمد بن المنلا النخجواني الملقب بالمنطقي شاعر ناثر فقيه ينظم وينثر في الألسن الثلاثة العربية والفارسية والتركية.

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين علي الطرابلسي اشتهر بالرياضيات والقراءات والفرائض والفقه وله تآليف (١٠٣٢)، وعمر بن محمد القاري عالم مفنن له باع في الهيئة (١٠٤٦)، وعمر بن يحيى المعروف بالدويك كان عارفًا بفنون عديدة منها الرياضيات والفلك والميقات وله شعر (١٠٨٣)، ومحمد بن يونس الطبيب الخطيب (١٠٠٨)، والمنلا محمود الكردي عالم في كثير من الفنون (١٠٤٧)، وابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق وخطيب أُمويها عالم في العلوم الغربية مثل علم الوفق وعلم الحرف وله يد طولى في العقليات (١٠٠٧)، وعبد القادر ابن عبد الهادي رياضي فقيه أصولي (١١٠٠)، وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩)، وإبراهيم بن الأحدب الزبداني محدث فرضي رحالة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة محمد النجدي ويلحق بابن

الهائم في هذين العلمين (١٠١٠). ونشأ في هذه المدينة أيوب الخلوتي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١). ومن الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسي الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب وأحمد بن محمد البصراوي ويعرف بابن الإمام (١٠٠٣).

وجاء في المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققًا في المذهب والتفسير والبحث نظارًا (١٠٣٩)، وأبو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي متفرد بالإتقان والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله رسائل وتآليف (١٠٧١)، ومحمود البيلوني الحلبي كان إذا تكلم في فن من العلم يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧)، وفتح الله البيلوني الحلبي له عدة مصنفات وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢)، ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبية المطبوعة وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤)، وعلي البصير له كثير من التآليف في الفقه وغيره (١٠٩٠)، ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب في الفنون والعلوم ألف مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير وهو شاعر مجيد (١٠٩٦)، وعبد الوهاب بن رجب إمام في العربية (١٠١٥)، وعلي البصير الحموي له تآليف في الفقه وغيره، ومحمد بن أبي بكر الحموي له تآليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات، وكان عالمًا بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزايرجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦).

ومن علماء السريان أندرواس اخبيجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك، وأبو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦)، وأحمد بن خليل الأطاسي الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤)، وأحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦)، وباكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب من أدباء عصره

أكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤)، وبشير بن محمد الخليلي القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلا شرف الدين العسيلي (١٠٦٠)، وتقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١٠١٠)، وحسن بن محمد أبو الفوارس الحموي المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره، وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣)، وحسين بن عبد الله المعروف بالملوك متصوف (١٠٣٤)، وخير الدين الرملي المفسر المحدث الفقيه اللغوي صاحب التآليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١)، ورجب بن علوان الحموي أمهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيئة والحساب والفلك والموسيقى وغيرها (١٠٨٧)، وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠)، وصاحب بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١)، وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩)، وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحجازي عالم بالمعقولات، وعبد الله بن حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره وإنشائه في الألسن الثلاثة وله تآليف (١٠٩٦)، وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢)، ومحمد القاسمي الحلبي شاعر ناثر (١٠٥٤)، ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول (١٠٩٦)، ومحمد بن عبد القادر الشهير بالحادي الصيداوي أديب فقيه (١٠٤٢)، ومحمد التمرتاشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التآليف الكثيرة (١٠٠٤)، ومحمد بن علي المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩)، ومحمد البيلوني الحلبي راوية الشعر والوقائع خبير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥)، ومحمد بن محمد الحلفاوي الحلبي أديب (١٠٥٤)، ومحمد العسيلي القدسي له تصانيف دينية، وموسى الرام حمداني الحلبي البصير متفنن في الرياضيات والعلوم الحكمية وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩).

وبهاء الدين العاملي الفقيه الأديب صاحب المخلاة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب المطبوعة، ومحمد الفصي البعلبكي الفقيه وآباؤه كلهم رؤساء العلم في تلك الناحية وله تآليف (١٠٢٤)، وأبو الوفاء بن معروف الحموي له تآليف (١٠١٦)، وحسين الأشقر كان جامعًا لأنواع الفنون (١٠٤٢)، وعبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفًا (١٠٤٠)، وعبد النافع بن عمر الحموي كان متضلعًا من العلوم شاعرًا (١٠١٦)، وداود الأنطاكي ويعرف بالشيخ الصوري (١٠٠٥) ألف كتابًا في السب سماه تذكرة أولي الألباب مطبوع، وتقي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية.

العلوم والآداب في القرن الثاني عشر

دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديمًا لا إبداع فيها ولا اختراع، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفًا عن سلف، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و«صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير». كما قال أحد العارفين بذاك القرن. وجاء في العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠)، وأبو الإسعاد بن أيوب عارف بعلوم جمة مبرز في علوم الأبدان (١١٠٦)، وأبو الصفا المفتي فقيه مفسر نحوي، وأحمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣). قال المرادي: وهو في هذا القرن -أي الثاني عشر- كالأمير منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح، وإن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له، وأحمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تآليف (١١٤٣)، وأحمد بن علي المنيني المحدث اللغوي النحوي الأديب له تآليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢)، وأحمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣)،

وأحمد الفلاقنسي أديب منشئ (١١٧٣)، وأحمد المهمنداري فقيه مفنن له شعر وأدب (١١٠٥)، وأحمد البهنسي فقيه أديب (١١٤٨)، وأحمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١)، وأسعد الطويل أديب (١١٥٠)، وإسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣)، وإسماعيل العجلوني رحلة له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢)، وحامد العمادي فقيه فرضي شاعر أديب له تآليف، وخليل الحمصاني له يد في التفسير خاصة (١١٢٣)، وزين الدين البصروي عالم أديب (١١٠٢)، وسعيد الجعفري عالم أديب له شعر (١١٨٣)، وسعيد السمان لغوي شاعر ناثر له تآليف (١١٧٢)، وسعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧)، وسعدي بن حمزة محدث فرضي حيسوب مهندس مساح (١١٣٢)، وسليما الحموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧)، وصالح الجينيني محدث فقيه (١١٧٠)، وعبد الجليل المواهبي عالم في المعقولات (١١١٩)، وعبد الرحمن الصناديقي فقيه أصولي نحوي (١١٦٤)، وعبد الرحمن الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨)، وعبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢)، وعبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣)، وعلي الطاغستاني عالم محقق مفنن (١١٢٩)، ومحمد الدكدكجي صوفي مقرئ متفنن (١١٣١)، ومحمد الكفيري فقيه أديب (١١٥٠)، ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧)، ومحمد أمين المحبي عالم أديب مؤرخ له تآليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١)، ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والأوفاق والرياضيات (١١٤١)، ومحمود العبدلاني عالم محقق (١١٧٣)، ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تآليف (١١٣٢)، ومكي الجوخي عالم أديب متضلع له شعر وكتابة (١١٩٢)، ومصطفى اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧)، ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفا بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد

خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر ألف بيت (١١٦٢)، ومصطفى العلواني الحموي أديب ناثر ناظم (١١٩٣)، ومصطفى السفرجلاني متفنن في العلوم الحكمية له رسائل في المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١)، وموسى المحاسني عالم محقق (١١٧٣)، وعبد الرحيم المخللاني عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠)، وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥)، وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوي فرضي له بعض تآليف ورسائل (١١٢٣)، وعبد الرزاق الرومي فقيه له تآليف، وعبد السلام بن محمد المعروف بالكاملي أو الكامدي فقيه أصولي نحوي أديب (١١٤٧)، وعبد الغني النابلسي إمام في التصوف والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تآليف كثيرة ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية والبديعية وكتاب في الزراعة وديوان والرحلة القدسية والرحلة الحجازية وغيرها (١١٢٦)، وعبد الفتاح بن مغيزل أديب طبيب (١١٩٥)، عبد القادر التغلبي فقيه فرضي (١١٣٥)، عبد القادر الكردي عالم محقق له ثلاثون تأليفًا (١١٧٨)، وعبد الله البصروي عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠)، عبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تآليف ورسائل (١١٥٤)، عبد الله المكتبي محقق في الحساب والفلك والهيئة والتقويمات (١١٦٢)، عثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم الأدب (١١٢٦)، عثمان القطان عالم بالعقليات والنقليات (١١١٥)، عمر البغدادي عالم متصوف له رسائل (١١٩٤)، عمر الرجيحي كاتب أديب (١١٣٠)، علي العمادي عالم أديب (١١١٧)، علي التدمري فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف والزايرجة والوفق (١١٣١)، علي كزبر عالم رحلة مقرئ (١١٦٥)، محمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣)، يوسف بن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء.

هذا غاية ما يقال في رجال دمشق؛ أما في المدن الأخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث العالم بالمعقولات (١١٧٨)، أحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤)، أبو السعود الكواكبي العالم المحقق الشاعر (١١٣٧)، وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون، المطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تآليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره سليمان الحلبي، عبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الإنجيل وطابعه، عبد اللطيف الأطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والأوفاق وغيرها وله شعر كان حيًّا سنة ١١٤٠، البطريرك ميخائيل جروة الحلبي، الأيكونيموس بطرس التولوي، القس يوحنا زندو الحلبي، وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر، والشاعران ميخائيل جبارة وأنطوان ذكري، ويوسف الشراباتي، ويواكيم البعلبكي الواعظ له تآليف (١٧٨٢م).

وأحمد العكي العالم الفقيه له تآليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧)، عبد الله الإطرابلسي المعروف بالأفيوني الفقيه له عدة تآليف وشروح (١١٥٤)، عبد المعطي الخليلي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤)، إبراهيم الحاقلي له عدة تآليف ترجم عدة كتب من العربية إلى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية وعدد تآليفه ٦٤ (١٦٦٤م)، البطريرك إسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م)، علي البرادعي البعلي الواعظ كان جده الأعلى جلال الدين من العلماء الأجلاء، ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤)، السمعاني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م)، وله شهرة في إيطاليا وإسبانيا وتآليفه كثيرة قال الدبس بعد أن عدد تآليفه: وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن كان

مغرمًا بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه. والقس يوسف الباني الحلبي ترجم عدة كتب إلى العربية في الدين المسيحي، والبطريرك مكاريوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد، وهو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا.

العلم والأدب في القرن الثالث عشر

كان القرن الثالث عشر تتمة القرن الثاني عشر، ولكن فيه بطء وضعف، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات والفنون (١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها، وأحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة (١٢٤٨)، أحمد المنيني الفقيه المحدث (١٢٥٦)، أحمد بن إسماعيل بيبرس فقيه (١٢٤٧)، أسعد المنير فقيه (١٢٤٢)، حامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣)، كمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تآليف في التاريخ (١٢٠٩)، حسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦)، خليل الخشة فقيه (١٢٤٢)، رضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦)، شاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢)، صالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦)، عبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢)، مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفًا ومعربًا (١٨٥٥م)، يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠م)، حسين الغزي الحلبي أديب (١٢٧١)، جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلستان للشيخ سعدي مطبوع (١٨٥١م)، عبد القادر العمادي فقيه (١٢٢٨)، عبد الغني السقطي عالم مفنن (١٢٣٦)، عمر الغزي فقيه (١٢٧٧)، قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤)، كمال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤)، محمد

المخللاتي فرضي موقت فلكي (١٢٠٧)، نجيب القلعي فقيه (١٢٤١)، محمد عابدين صاحب التآليف والرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع، عبد الغني الميداني عالم بالأصول والفقه وفنون العربية (١٢٩٩)، عبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥)، مصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠)، عبد القادر الحسني الجزائري عالم بالتصوف والأخلاق وله شعر ونثر وتآليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠).

ونشأ في حلب محمد نور الترمانيني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه أحمد الترمانيني (١٢٩٣) خلَّف عدة تآليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء، رزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة، وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالأستانة، وفرنسيس مراش الأديب له عدة تآليف وديوان شعر (١٨٧٣م)، عمر الأنسي البيروتي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣)، أمين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧)، بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م)، ناصيف اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيرًا (١٨٧١م)، نقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيس على مصر والشام مطبوع وغيره، حسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢)، محمد النصري كان في حدود المائتين وألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب نصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م)، أحمد البربير البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦)، حيدر أحمد الشهابي اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع، محمد أرسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ

(١٨٦٤م)، ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفًا طبع أكثرها، نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب، عمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤)، محمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨).

العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر

وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تباشير العلوم الرياضية والطبيعية، وكانت انحطت انحطاطًا أشبه بالاندراس، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر؛ فإنه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها، فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين، وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام.

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الأستانة ولا سيما المدرسة الحربية والطب، وبعد حين أحدثت مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم؛ لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها، وأبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك الجيش والطب والإدارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن لغتهم، فجاء أكثرهم ضعافًا حتى في العلم الذي أخصوا فيه، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصارى مثل مدرسة عين ورقة الأكايركية التي أنشئت سنة (١٧٨٩م) ونبغ فيها كثير من البطاركة والمطارنة والكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر. قال الدبس: ومن هذه المدرسة خاصة ابنعثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون، ومثل مدرسة

كفتين للروم الأرثوذكس، والمدرسة الوطنية في بيروت، والجامعة الأميركانية في بيروت التي علمت زمنًا طويلًا العلوم بالعربية ومنها الطب، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية.

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط، وكان يعرف العربية والسريانية والإيطالية واللاتينية والعبرانية واليونانية، ووجد من خديوي مصر إسماعيل وغيره من ملوك المسلمين وأمرائهم تنشيطًا على إتمام عمله، كما نشأ في تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب الساق على الساق وكشف المخبا والجاسوس على القاموس وسر الليال وغيرها وكلها مطبوع، ووجد هذا من عزيز مصر وباي تونس وملك باهوبال تنشيطًا كثيرًا. وهنا يقضي الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير، فإن رجالها في كل دور قد تقيلوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها.

العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر

ومن علماء القرن الأخير والذي بعده في دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات، بكرى العطار إمام العربية ولا سيما النحو والتصريف، ثم الفقه والحدث، حسن البيطار فقيه متفنن، محمد الطنطاوي عالم بالعربية والأصول والفقه والفلك والميقات، حسن الشطي فقيه، محمد الجوخدار فقيه، عبد الله الحلبي فقيه أصولي، أحمد الحلواني شيخ القراء، محمد الخاني متصوف فقيه، عمر العطار فقيه عالم

بالعربية، عبد الرحمن الطيبي فقيه، محمد المرعشلي أديب وفقيه، عبد الرحمن البوسنوي عالم بالعربية، أحمد فوزي الساعاتي عالم بالعلوم المادية والدينية، عبد المجيد الخاني أديب شاعر، عبد الحكيم الأفغاني عالم بالفقه والأصول، ملا عيسى الكردي فقيه أصولي، محمد محمود الأتاسي فقيه أصولي، علاء الدين عابدين فقيه أديب، صالح قنباز عالم بالتربية والطب له عدة رسائل وكتب، عبد الله السكري فقيه، محمد المنيني فقيه محدث، وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تآليف نشر العلوم الإسلامية والعربية بين نصارى لبنان (١٣٠٧)، إبراهيم الأحدب عالم بالتفسير والحديث والاصول والفقه واللغة والأدب، وله عدة تآليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم مجمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨)، أمين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تآليف (١٨٩٧)، إسكندر أبكاريون له تآليف في التاريخ (١٨٨٥)، يوحنا ابكاريوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومعجم إنكليزي مطول، محمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث، عبد الغني الرافعي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف، محمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر، إبراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦م) أديب رياضي فلكي له عدة تآليف ومقالات وتحقيقات، سليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩م)، ميخائيل مشاقة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الإصلاح الديني في النصرانية (١٨٨٩م) له تآليف، سليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان (١٨٩١م)، يوسف الدبس (١٩٠٩م) أديب له تاريخ سورية المطبوع، جرجس همام رياضي أديب له المعجم العربي الإنكليزي والكتب المدرسية والهندسية (١٩٢٠م)، سعيد الخوري الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان

متقنًا للفقه الإسلامي، رشيد الشرتوني أديب نحوي كاتب له عدة كتب مدرسية وغيرها، رُشَيْد الدحداح اللبناني له عدة تآليف في التاريخ ونشر تآليف فيه (١٨٨٩م)، أديب إسحاق كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣)، إبراهيم سركيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات، سليم شحادة مؤرخ وهو أحد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع، أنطون الصقال شاعر كاتب، قاسم أبو الحسن الكستي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٣٢٢)، حسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهريين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧)، يوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية، روحي الخالدي له عدة تآليف منها علم الأدب عند الإفرنج والعرب، طاهر الجزائري العالم بالتفسير والحديث والفقه والأصول الفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفًا مطبوعة في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنانيش فيها آراؤه ومطالعاته يحسن الفارسية والتركية ويلم بالحبشية والسريانية والعبرانية والفرنسية (١٣٣٩)، محمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠)، محمد مرتضى متصوف فقيه أديب كاتب شاعر، عبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ رجال عصره مخطوط، جمال الدين القاسمي فقيه محدث أصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الإصلاح الإسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢)، عبد الله الحموي شيخ القراء، شاكر الحمزاوي فقيه، شبلي شميل فيلسوف كاتب أديب طبيب له تآليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة، جرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الإسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤)، رفيق العظم مؤرخ اجتماعي كاتب له عدة

مصنفات منها أشهر مشاهير الإسلام (١٣٤٣)، سليم التنير كاتب باحث له تآليف ورسائل.

ومات من الفقهاء خالد الأتاسي، أبو الخير عابدين، أمين السفرجلاني أديب له بعض تآليف، أحمد الزويتيني الحلبي (١٣١٦) الفقيه، أحمد صلاح، محمد الزرقا، صالح الرافعي، أحمد الصديقي، طاهر الحسيني، يوسف الإمام، خليل التميمي، محيي الدين الحسيني، إبراهيم أبو رباح، بشير الغزي، مصطفى كرامة، صلاح الدين تفاحة، محيي الدين اليافي، حسين العمري إلى أمثالهم.

وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكاتبات والأديبات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان مطبوع، نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١م)، داود عمون شاعر أديب، يوسف خطار غانم، محمد الهلالي شاعر، إسكندر عازار، نعوم شقير له مؤلفان في تاريخ سينا والسودان مطبوعان، أمين حداد، نعوم لبكي، أنطون رباط، أبو الخير الطباع، محمد علي حشيشو، جرجي ديمتري سرسق، فرح أنطون له عدة تآليف وترجمات مطبوعة، إسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة، شاكر شقير كاتب شاعر، محمد أرسلان، عمر حمد شاعر، عمر اليافي، محمود الشهال شاعر، نقولا رزق الله، جميل مدور، نوفل نوفل، أمين الشميل، صلاح الدين القاسمي، شاكر الخوري له كتاب هزلي، أحمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع، محيي الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية، حسن رزق، حسن بيهم كاتب متفنن، سليم سركيس كاتب هزلي، عبد الوهاب الإنكليزي، سليم الجزائري، شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية، رشدي الشمعة شاعر كاتب، أحمد طبارة، عارف الشهابي، عبد الغني العريسي، جرجي حداد، سعيد عقل، باترو باولي، رفيق رزق سلوم، فيليب الخازن، فريد الخازن، محمد المحمصاني عبد

الحميد الزهراوي، عبد القادر المؤيد، حسين وصفي رضا، بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره، محمد عبد القادر الحسني، محيي الدين الحسني له مؤلفات، شاكر عون، سليم بسترس، سليم تقلا، سليم عباس، سليم البستاني، أسعد الشدودي، عبد الغني الرافعي، شاكر أبو ناضر، خليل باخوس، سليم باز، سليم جدي، فيليب جلاد، نجيب حبيقة، يوسف حرفوش، أمين الخوري، يوسف دريان.

وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم، وردة اليازجي، عفيفة أوزون، زينب فواز، وردة الترك، هيلانة البارودي، سلمى قساطلي، هنا كسباني، مريانا المراش، سارة نوفل، فريدة عطية.

المعاصرون من العلماء والأدباء

ومن شيوخنا وكهولنا وشبابنا ونسائنا من اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها وممن اشتهر منهم:

١- علماء الدين والفقه والقضاء: سليم البخاري، رشيد رضا، بدر الدين الحسني، عبد الله العلمي، عبد الله الجزار، مسعود الكواكبي، سعيد العرفي، سعيد مراد الغزي، مصباح محرم، عبد المحسن الأسطواني، أحمد عباس، محسن الأمين، جرجس صفا، عطا الكسم، سعيد النعسان، سعيد الباني، بهجة البيطار، طاهر الأتاسي، يوسف النبهاني، محمود منقارة، عبد الكريم عويضة، عبد اللطيف نشابة، عبد الحميد الجابري، عبد القادر بدران، عبد القادر القصاب، طاهر المنلا الكيالي، أحمد النويلاتي، خالد النقشبندي، نجيب قباني، عبد الكريم حمزة، محمد الأسطواني، محمد الكستي، إبراهيم هاشم، سليمان أحمد، طاهر أبو السعود، يوسف الإمام الحسني، محيي الدين الخاني، عيسى العكرماوي، منيب هاشم، نمر الداري فهمي الحسيني، عادل زعيتر، أحمد الزرقا،

نجيب أبو صوان، مصطفى برمدا، حسن الشطي، عوني عبد الهادي، معين الماضي، يوسف الخيري، أمين عز الدين، إسماعيل حافظ ميخائيل عيد البستاني، مصطفى الخاني، مصطفى نجا، فوزي الغزي، فتح الله أديب، علي الكيالي، عبد المجيد المغربي، محمد الحسيني، محاسن الأزهري، توفيق الدجاني، خليل الخالدي.

ومن المتفردين بالقراءات في دمشق: محمد الحلواني، عبد الله المنجد، أحمد دهمان، محمد القطب، عبد الرحيم دبس وزيت وغيرهم.

٢- العلوم الفلسفية والمادية: يعقوب صروف، منصور جرداق، جودت الهاشمي، مصباح حولا، فارص الخوري، سعيد البحرة، رشدي سلهب، درويش أبو العافية، شكري خليفة، أمين معلوف، عبد الوهاب المالكي، إميل خاشو، يوسف أفتيموس، إبراهيم الداداء، وجيه الجابري، فيكتور كورنلي، إسماعيل باقي، أحمد رستم، مصطفى الشهابي، وصفي زكريا، جمال الفرا، يوسف قدورة، محمد الترمانيني، صلاح الدين الكواكبي، مصطفى تمر، هاشم الفصيح، عبد الوهاب القنواني، أسعد الحكيم، سعيد شقير، أحمد حمدي الخياط، مرشد خاطر، جميل الخاني، حسني سبح، محمد مخرم، شوكة الشطي، جميل صليبا، جعفر الحسني وغيرهم.

٣- العلوم الاجتماعية والتاريخية والحقوقية: شكيب أرسلان، فارس نمر، داود بركات، خليل ثابت، عيسى إسكندر المعلوف، نقولا حداد، محمد رستم حيدر، نسيم صيبعة، سعيد حيدر، جرجي يبي، عمر الصالح البرغوثي، خليل طوطح، ميخائيل ألوف، قسطنطين الباشا، سليم شحاده، نجيب صليبا، رفيق التميمي، أسد رستم، راشد طبارة، أسعد منصور، سعيد المحاسني، زكي الخطيب، عارف الخطيب، قسطنطين زريق، حبيب

الخوري، روحي عبد الهادي، حسن فهمي الدجاني، أحمد سامح الخالدي، ساطع الحصري، حسن يحيى الصبان وغيرهم.

٤- الأدباء: عبد الله البستاني، لويس شيخو، أسعد خليل داغر، سليم الجندي، إسعاف النشاشيبي، عارف النكدي، كامل الغزي، قسطاكي الحمصي، الخوري بطرس البستاني، مصطفى الغلاييني، رشيد عطية، أمين ظاهر خير الله، حنا صلاح، رشيد بقدونس، أنيس المقدسي، جبر ضومط، جرجس منش، أحمد رضا، سليمان ظاهر، عزة دروزة، بندلي الجوزي، عبد الرحمن سلام، عبد القادر المغربي، عبد القادر المبارك، إبراهيم منذر، أنيس الخوري المقدسي، ميخائيل صقال، نجيب ميخائيل ساعاتي، جرجس شلحت، سامي جريديني، حسني عبد الهادي، راغب الطباخ، سامي الكيالي، عز الدين علم الدين، عبد الله النجار، عمر الأتاسي، أبيفانيوس زائد، علي ناصر الدين، عبد اللطيف صلاح، عبد الله مخلص، عمر الزعني، حبيب كحالة، عارف الزين، فيليب طرازي، راجي الراعي، جميل معلوف، عمر الفاخوري، جرجي باز، أحمد صلاح الدين، أحمد عبد المهدي، يوسف زخم، جميل الشطي، صبحي القوتلي، توفيق ناطور، أنطون جميّل، نزيه المؤيد، لويس معلوف، شكري الجندي، وصفي الأتاسي، أمين الحشيمي، أنيس النصولي، أديب التقي، جودت الكيال، محمد الداودي، أحمد عبيد، حمود الزبرؤتي، منح هارون، فائز الغصين، سامي العظم، خالد الحكيم، وجيه بيضون، نجيب الريس، شريف عسيران، أديب الصفدي، أديب فرحات، سعيد الصباغ، جمال الملاح، أديب وهبة، عبد الغني باجقني، عارف التوام، فوزي العظم، حسن الحكيم، إلياس القدسي، عبد الله رعد. صبحي أبو غنيمة، ميشل بيطار، إبراهيم حرفوش، توفيق حمادة، عبد الله خير، سليم خطار الدحداح، حكمة المرادي، يوسف اليان سركيس، يوسف صادر، أنطون صالحاني،

جودت المارديني، نعيم صوايا، إسكندر طحيني، بولس عبود، إميل عرب، يوسف علوان، يوسف غصوب، جبرائيل قرداحي، يوسف قيقانو، نجيب مخلوف، فيليب مسك، أمين مشحور، حلمي مصري، عيسى بندك، شكري كنيدر، عبد الله صفير، حبيب زيات، أحمد عمر المحمصاني، محمد علي الطاهر، يوسف حيدر، أنطون شعراوي، توفيق الحلبي، توفيق جانا، أسعد ملكي، رزق حداد، عباس أبو شقرا، طه مدور وغيرهم.

٥- الكتاب: عبد الباسط فتح الله، خليل زينية، خليل سعادة، خليل سعد، سامي قيصري، نعوم مكرزل، يوسف الخازن، عبد الله الأسطواني، نجيب شاهين، إميل زيدان، إبراهيم سليم النجار، يوسف العيسى، بدر الدين النعساني، عادل أرسلان، محمد الجسر، توفيق اليازجي، إدوارد مرقص، أمين الريحاني، مصطفى الخيري، محمد علي السراج، محب الدين الخطيب، سليم قبعين، ميخائيل نعيمة، بولس الخولي، جبران تويني، جبران خليل جبران، شحادة شحادة، أمين غريب، فؤاد صروف، سعيد أبو جمرة، يوسف البستاني، خليل السكاكيني، عادل جبر، نجيب نصار، رشدي الحكيم، عيسى العيسى، سليم ابكاريوس، أمين الكيلاني، سعيد الزهور، خليل بدوي، خليل بيدس، بطرس غالب، ناجي أديب، وجيه الكيلاني، سعيد الافغاني، صلاح الدين المنجد نجيب الريس، سامي كبارة، جبران تونسي، خليل كسيب، على الطنطاوي، كاظم الطاغستاني، عمر الطيبي، أمين الحلبي راشد البيلاني، عبد الهادي اليازجي، فارس فياض، أحمد شاكر الكرمي، أحمد كرد علي، معروف الأرناؤط، عبد الحسيب الشيخ سعيد، نجيب اليان، إيليا زكا، نجيب شقرا، زكي مغامز وأمثالهم.

٦- الشعراء: فؤاد الخطيب، أمين ناصر الدين، خليل مطران، خير الدين الزركلي، خليل مردم بك، شفيق جبري، سليمان التاجي، عبد

الحميد الرافعي، مصباح رمضان، طانيوس عبده، إلياس فياض، سليم عنحوري، محمد الشريقي، نوفل إلياس، محمد البزم، جرجي عطية، بشارة الخوري، شبلي ملاط، أمين تقي الدين، رشيد نخلة، محمد سليمان، أسعد رستم، فخري البارودي، نسيب أرسلان، إيليا أبو ماضي، حليم دموس، أبو السعود مراد، عبد الرحمن القصار، كامل شعيب، عارف الرفاعي، نديم الملاح، محمد الفراتي، عبد الرحيم قليلات، جميل العظم، إبراهيم الشدودي، حسين الحبال، أمجد الطرابلسي، جميل سلطان، زكي المحاسني، عمر أبو ريشة وغيرهم.

٧- الخطباء: عبد الرحمن شهبندر، أسعد الشقيري، أسعد عفيش، نقولا فياض، غريغوريوس حداد، حبيب أسطفان، أنيس سلوم، فيلكس فارس، حنا خباز، عبد الرزاق الدندشي، مصطفى الشماع، محمود النحاس، بدر الدين الصفدي، أفرام أبيض، عبد الرحمن الكيالي، سامي السراج وغيرهم.

٩- الكاتبات والشواعر والخطيبات: ماري زيادة، ماري عجمي، سارة خطيب، لبيبة هاشم، نجلا أبو اللمع، سلمى صائغ، جوليا طعمة، عفيفة صعب، عنبرة سلام، مسرة الأدلبي، ماري يني، هيلانة البارودي، فاطمة سليمان، ابتهاج قدورة، بهيجة المؤيد، خيرية ترمانيني وغيرهن.

تأثيرات الأجانب في التربية

من المعاهد التي خرجب أُناسًا بالعربية والفرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت، وكان أول نزول الآباء اليسوعيين في الشام سنة (١٦٥٣م)، فأسسوا مدرسة عينطوار بلبنان التي أخذها الآباء اللعازريون بعد مدة (١٨٣٤م)، وخرجت كثيرًا من الأدباء باللغة الفرنسية فقط، وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين، وهم يتلون

القرآن ولكن بدون أن يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة، ويتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة إلى المعاجم، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع ويدون، بل كانوا إذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئًا منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة؛ بل إن الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التحميدات والتقاريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة، وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الأب للابن، وكان المفتي أبو السعود من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم؛ بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء للأميين، وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم؛ لأن أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفًا على بذل شيء من الرُّشى، فيصل إليه أجهل الناس وبذلك فترت الهمم، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين؛ لأن الجاهل والعالم سواء، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمت إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة.

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها إلى الكبراء وأرباب الدولة، والشاعر كطبال أو زامر أو قراد يغني ويلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة. وهناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال وهي أن من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لهم معينة وانقطع إلى

مدرسة من المدارس، وجاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة العسكرية، فتعلم بذلك كثيرون، ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر.

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالأفول والإندراس، والمسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوهم قِبَل المناصب الدينية والإدارية والعسكرية، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة، جعلت تدريس العربية وآدابها واللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها، فجاء من أبنائهم ومن أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب، ومنهم أفراد نزحوا إلى مصر وأميركا وتولوا الأعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ولا سيما في القرن التالي، وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى وغناء اليهود، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقات، ومن اليهود مغنون ومغنيات؛ أي أن الزمن أبطل ذاك الزعم.

الآداب في القرن الرابع عشر

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية وغيرها في بيروت وصيدا ودمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من

المتأدبين كما خرَّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة المارونية في بيروت.

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية أولًا لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة ومطارنتهم وأساقفتهم وقسيسهم بالعلم واللغة. أما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الأميركية أكثر من غيرها، ولو لم تُبطل تدريس العلوم العربية وتجعله إنكليزيًا لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية، وكان من أستاذين من أساتذتها الدكتور فانديك الأميركاني والدكتور ورتبات الأرمني فضل على العربية بما كتباه في العلوم المختلفة باللغة العربية، وكذلك كان شأن بوست الأميركاني فإنه ألف كتبًا علمية نافعة بلغتنا فعد ما، وكذلك فعل بورتر وغيره.

إنَّ المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الأميركيين واليسوعيين وغيرهم من الأمم ذات المطامع في الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلونة، فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أُنشئت له مدرسته، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقسامًا، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة، فالإنجيليون أو البروتستانت تنتشر دعوتهم كل يوم، واليسوعيون ينزعون منزعًا آخر في التربية الدينية والسياسية، وهكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده، وكم رأينا رجالًا ونساء درسوا في تلك المدارس فجاءوا لا عرب ولا إفرنج، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم، ولا يشعرون شعور الشامي،

بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم، ولذلك صح أن يقال: إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار أنصارًا.

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف لولم ينفعوا الشام بشيء كثير من علمهم، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين والمدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات، وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب؛ بل إن معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه، وهجرها إلى أرض أخرى. إن الشامي المتأدب في الجملة بآداب قومه يحب لغته ويغار عليها، ولذلك أسس عدة صحف ومجلات راقية في مصر والمهجر من أميركا الشمالية والجنوبية وحبب المطالعة بالعربية إلى من نزل عليهم، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية، وما ندري إن كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل، فإن الجيل الجديد من الشاميين في أميركا الشمالية والجنوبية قلما يعرف العربية؛ بل هو يتكلم بالإنكليزية أو الإسبانية أو البرتغالية. وأعظم نقص في المدارس الأميرية والطائفية والأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهيئ المتخرجين على معلميها إلى الهجرة، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق على حالتنا.

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية في ديارهم، فإن كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور، فقد أضرتها بانحلال عقدة الوطنية، فمدارس الأميركان والروس

واليونان والفرنسيين والإنكليز قد أصلحت وأفسدت، أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئًا من معارف الغرب، وأضعف في نفوسهم حب الوطن بتحبيبها إليهم أوطانًا غير أوطانهم، وتعريفهم إلى رجال غير رجالهم، والعاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع، وانتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره، ومن زهد في لغة آبائه وجدوده كان حريًا بالزهد في وطنه ووطنيته، واللغة والوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد. جنت مدارس الأجانب والحكومة أعظم جناية؛ لأن المتخرجين فيها ومعظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة ولم ينفعوا الأرض التي ولدوا فيها. إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأعلاق ونفائس المتاع، أستغفر الله بل إن من يسرق فلذات الأكباد، ليخرجها على ما أراد، أشق على النفس وطأة، وأعظم في المغبة أثرًا. وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال؟ أوليست الأرواح أثمن من كل بضاعة، وهل أعز من الولد على قلب أبويه. إنَّ المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل، ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها، وتتجرد أمة فتفنى لإحياء غيرها، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أُخرى، ولا تهمها دارها وتريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها.

في نحو سنة (١٢٧٨) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي أول مدرسة أميرية أُنشئت في حلب. وأنشأ[1] مدحت باشا في دمشق سنة (١٢٩٥هـ) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث ودار صنائع، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة، وما برحت المعارف مذ ذاك العهد

---

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩-٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٠.

تعلو وتسفل والحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية والثانوية إلا أن تُخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكريين يكونون أتراكًا بألسنتهم لا بقلوبهم، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم، وقد أخذ دعاة تتريك العناصر يقاومون العربية سرًّا، فما هي إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية،

فضلًا عن اللغة الفرنسية التي كان تعلمها إذ ذاك رسميًا في الظاهر صوريًا في الحقيقة، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة، وكان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة، ومعظم من أتموا تعلمهم في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط.

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه، وجعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذا القطر، وروحها لم تبرح تلك الروح التركية؛ لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية، وقد حاولت إدارات المعارف في الديار الشامية نزع الروح القديم وتنشئة المعلمين نشأة عربية، وليس في الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شبَّ عليه، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الأمة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها، وتغذية العقول غذاءً كافيًا ينفعها في استخراج ثمرات الأرض وكنوزها والتفنن في صنعها ووضعها، وتجديد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبيِّ. أما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم، أُصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر وأكل أوقافها، وقد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها،

ولم يتهيأ لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها، وإذا درس المشايخ الدروس النظامية، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية، تنحل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات مشاكل كثيرة. ومن العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل -عدا الكتاتيب الملحقة بالجوامع- تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة.

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينية مدة اثنتي عشرة سنة، ونزل الطلبة في المدارس: المدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرناصية والإسماعيلية، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس ويقرأ الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة ويرجى أن يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون.

أمّا علماء الدين عند المسيحيين والإسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا أو إيطاليا أو أميركا وغيرها فلا يرقى في الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، ولذلك جاء البون شاسعًا بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من أرباب الأديان، وغدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الإسلام على النحو الذي هي في النصرانية؛ لأنه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة

الخاصة، ولأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة، والأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. ومن أغرب الحالات أن مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين. وبهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد؛ لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده، وخصوصًا في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالإسلام والعرب، وتحرف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه إلا ما ينطبق مع رغائبها، ولا يفيد شيئًا في تكوين الوطنية والقومية، ولو اتحدت التربية واشترك جميع أبناء الشام في التناغي بها والاعتماد عليها، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج

سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها، ارتفاعه عند أمم الحضارة في الغرب، ويؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات الحديثة. وعندنا أن لا نهضة في الأخلاق والعلم والشئون الاقتصادية والاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليمًا صحيحًا؛ لأنهم ستة أسباع السكان، والثروة الثابتة ملكهم، وهذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليمًا وطنيًا واحدًا.

الجامعات والكليات

احتفل الصهيونيون سنة (١٣٤٣م) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية والمذهب الإنجيلي من

الجامعة الأميركية، وانتشرت المدنية الفرنسية والكثلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية.

وفي (١٥ حزيران ١٩٢٣م) أُسست في دمشق الجامعة السورية وهي ذات فرعين الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ثم أُضيفت إليها شعبة الآداب وألغيت بعد سنين، وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق؛ لأن معظم المدرسين من الطبقة التي لا تقيم للعربية وزنًا، فقد تخرجت في مدارس الترك لتكون من الموظفين في الحكومة العثمانية، ولم تُعن بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها، ومن الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أُناس هم أتراك في تربيتهم وأفكارهم ومنازعهم في صميم بلاد العرب، وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية. ويرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا وُسدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة، يحسنون العربية إحسانهم العلم الذي يدرسونه وأن تصقل أماليهم بأيديهم صقلًا متقنًا بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة، لا مترجمة في الأكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر، والمعلوم أن لغات العلم ثلاث؛ الإنكليزية والفرنسية والألمانية ليس إلا، ومتى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التي يجب أن تتكون بحسب تاريخها ومنافعها الحاضرة والمقبلة. وبعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين

ارتقى مستوى التعليم في الجامعة السورية وارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية ووسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها وجاء

أساتذة أتقنوا العربية وآدابها وهم اليوم يلقون دروسهم بلغة أقرب إلى الفصحى وقد وضعوا التآليف في الطب والحقوق بلغة عربية مقبولة.

ولا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعًا حقيقيًا يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم -إلا إذا تمت فروعها فأنشئت فيها مدرسة للآداب وأخرى للعلوم وثالثة للإلهيات، وبذلك تتم فروعها وتنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية والمغربية، ولا غضاضةِ علينا إذا جئنا من مصر وديار الغرب بعلماء أخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من ضروب العلم، نتعلم منهم طريقتهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب، فالقطر المصري وهو أسبقِ منا في العلوم ما زال إلى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة والتعليم في جامعته. وعلى ذكر القطر المصري لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفزعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب ويرزقون منها، فكان لمصر الفضل على الشام وبنيه لأنها كانت منبعث قرائحهم. وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفرائد ما لا يمكن أحدًا جهله.

وبعد ذلك يرجى أن لا يضيق كثيرًا نطاق اللغة العربية، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب، وهي إلى ضئولة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة (١٣٣٧هـ) من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبهم، والأخذ بأيدي المؤلفين والمترجمين، وتحبيب المطالعة إلى الجمهور، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها. وإذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء إلهيين وعلماء مدنيين وأُدباء ومهندسين وطبيعيين

وكيماويين وزراعيين وأطباء وحقوقيين وأثريين يعرفون كيف يبحثون ويعلمون، نخدم المدنية خدمة حقيقية.

الإخصاء

وبعد فإن أهم ما ينبغي صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الإنسيكلوبيدية، أي المشاركة في العلوم المتعارفة، ثم الانقطاع إلى فرع واحد؛ أي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية والأدبية ثم معالجة موضوع واحد: «إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم في التعليم، فإن هذا العصر عصر التخصص. فقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد، فالأصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الإخصائيات. كان بادئ بدء كل شيء مفهومًا في الفلسفة، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم، وتنقسم إلى قسمين: المحسوسات والمعقولات، ودعيتا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة. أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيمًا معقولًا ولا جارية على طريقة معقولة، وكان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون في تعلمها آباءهم، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كان يعملون بها على الدوام.

ثم حسنت الحال بالتدريج ودخلت الأعمال في طور نظام، وانتظمت العلوم الرئيسة؛ لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية أي التجارة والصناعة والحرف، ونشأ الإخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات. فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة، ولا يخصي في تعاطي فرع واحد إلا في المدن، أما في القرى فيمارس كل فرع من فروع

الأمراض الباطنية والخارجية. وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام.

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع من المعارف، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر، أن يزيد أبدًا الإخصاء في كل علم وشأن. وإذا نظرت إلى الإخصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم، فإن المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس، ومتى حاز المرء قسطًا من هذه العلوم ورأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه وبدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدمًا بطيئًا، ويخلط ويبقى متوسطًا وإلى ضعف. والإخصاء ضروري أيضًا في العلم العملي أي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للسرعة في الإنتاج، وبهذا يرى أرباب معامل الإبر والخياطة في لندرا أن في تقسيم الأعمال اقتصادًا كبيرًا.

إذا قسمت الأعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها، فالإخصاء يؤدي ولا جرم إلى الضعف الأدبي، وذلك أن العاملات مثلًا إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئًا من حواسهن، ولكن ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت. أما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضًا. ومن ينصرفون في العلم المحض إلى الإخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه، ويدهشون من عاصروهم بغرابة أخلاقهم، وتشتت أفكارهم، وبالجملة فيقضي على كل مخصٍ في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظًا من المعارف لأول أمره، وأن يخصي في علمين أو ثلاثة، فإذا مارس أحدها أراح غيره اهـ.

الصحافة العربية

نشأت الصحافة، أي نشر صحف الأخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام (١٥٦٦م) في مدينة البندقية، ولم تلبث أن انتشرت في أوربا، ولكنها لم تُعرف في ديار العرب إلا في سنة (١٧٩٩م) أنشأها في مصر نابليون بونابرت، ولم تصل إلى الشام إلا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر، ففي بدء سنة (١٨٥١م) أنشأ المرسلون الأميركان في بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد». وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد، جمع جريدة، وهو الاسم الذي وضعه أديب لبناني للتعبير عن Gazette أو journal ثم وضع لغوي لبناني آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في شتى الموضوعات. وما زال للشاميين الفضل الأكبر في إنشاء الجرائد والمجلات. وقد أنشأوا في الأستانة ومصر وتونس وأوربا وأميركا صحفًا عربية كثيرة، وآزروا في صحف كثيرة، كما أنشأوا في الشام صحفًا كانت تعلو وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها؛ ذلك لأن الأمية كانت غالبة، ولم يكن الإقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها، هذا الإقبال الذي شوهد من بعد، وخرج مئات الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم ومبادئ اللغات الأجنبية.

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام، هبط مصر كثير من نبهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم، وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها إلى اليوم جريدتا الأهرام والمقطم ومجلات المقتطف والهلال وغيرها من الجرائد والمجلات التي نشرها الشاميون وعاشت مدة ثم احتجبت. وكلها أبلت بلاءً حسنًا في خدمة الأفكار ونشر الآراء العلمية والتهذيبية والأدبية

والدينية. وقد نشرت في الشام وفي مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء، وإن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب، وقضي عليها لقلة القراء، أو لوفاة أصحابها كمجلة الضياء والمنار ولم يأت من يخلفهم في موضوعهم. وأخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات والجمعيات معاضدة فعلية.

ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط، ولو كان في القوم أُناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برءوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم الخدمة اللازمة، ولا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم وتنشر محامدهم وصورهم، فالجرائد والمجلات بذلت الجهد إذًا في نشر الأفكار والتهذيب في الشام على قلة الوسائط، وكان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدها أكثر مما بذلت، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس، ترشدهم في جميع ما تشتد إليه حاجتهم من المعارف، وتغرس في نفوسهم روحًا وطنيًا لا تقوم الأمم بغيره، وتلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة في الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية.

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النبهاء في الصحافة، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عددًا، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أقلامهم رفع مستوى المعارف. ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه، علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية، لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها، علمتهم بسائط من التاريخ وحال

الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين، وأن أمتهم كانت شيئًا مذكورًا فيما مضى، ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم، وأصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف وتفهمها، أرقى عقلًا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مائة أو مائتين من السنين. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً. علمتهم أن الغرب لا يريد خيرًا للشرق، والشرق شرق والغرب غرب، وأن الأقليات التي كانت تصرفها أوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج في الأكثريات، وتوحيد المقاصد الوطنية، وكل أمة تُحكم برأي السواد الأعظم من أبنائها.

علم معظم الناس، إلا أُناسًا مأخوذين بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون إليه بصلة من صلات القربى المذهبية، وأن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل إلى الحصول عليها، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الواسطة. ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال في أول دور أن تشرّف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام، ومن خالف الصدعَ لأمرها تكسر قلمه وتشرده وتسجنه وتُنزل عليه غضبها، وقد تجلى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي، فلما أعلن القانون الأساسي أخذ الأتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدأ مبدأ السير بقوة الصحافة إلى الغرض الذي يرمون إليه، فصانعوا بعض أربابها وضحكوا من بعضهم بإكرامهم وإعطائهم مالًا. ولما جاءت الحكومات المنتدبة وهي من أعرف

الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت أيضًا بين الرغبة والرهبة والعطاء والمنع. ولم تخل الشام في كل دور من أُناس باعوا في خدمة صاحب القوة ضمائرهم، شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية، ولكن ظهر ذلك جليًّا في صحافتنا؛ لأن الدعاة للقوة ضعاف، حتى في فهم ما انتدبوا إليه، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أول يوم يسبحون بحمد من استهووهم.

وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج إلى أربع أو خمس صحف وبضع مجلات على النمط العالي من نوعها في أمم الحضارة، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شئونها إلى شركات منظمة تدير ماليتها، أو أحزاب سياسية ثابتة تدير حركتها، ويوكل أمرها إلى كفاة ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة أوربا وأميركا، ونحن لا نتطال إلى أن يكون للشام صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها، وصدق لهجتها لأمتها، وسرعة تناولها الأخبار، وتنويع أساليب التعليم والتفهيم، بل نرجو أن تكون لنا صحافة متناسب مع ماضينا وحاضرنا، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل. الصحافة عنوان ارتقاء الأمة، وليس ما يمنع من إبرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق، وهذا لا يتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفين.

قلنا في سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس): وقد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مائة صحيفة في هذا القطر الصغير، نأسف لأكثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها، وهي خلو من الفوائد اللازمة، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها في الجملة، لقلنا: إننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية، إن للنجاح

في الأعمال أسبابًا كثيرة، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي، إذا اختل أحدهما تعذر النهوض بالشق الآخر. وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا المقرر. وهل في الأرض عمل لا يحتاج إلى علم وتجارب ومال واستعداد؟ ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة، والشام في عهدها الدستوري وغيرهما من الأقطار والأمصار التي يتكلم أهلها بالعربية، تتجرأ على إصدار الصحف بدون حساب ولا روية، وأدركنا العامة أجرأ من الخاصة على اقتحام هذا المركب الصعب، وليس لديهم في الأغلب من وسائط النجاح كبير أمر، فلا يلبث ما ينشئون أن يظهر إلى الوجود حتى يختفي اضطرارًا لا اختيارًا. وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشمئزاز الناس منها؛ إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم.

ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة، فلم يعهد معلم في النجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من أسرارها سرًّا؛ ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال، قد رأينا أناسًا من الأغمار يدعونه بدون خشية وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها وإصدارها.

كان جمهور الناس إلى عهد قريب يشارك الأطباء في طبهم، فترى الكبير والصغير إذا عرض لهما مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه، مدعين أن ذلك من مجرباتهما أو مجربات أصحابهما، ولما كثر الأطباء واستنارت الأمة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الأطباء في طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة. أما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم، ويصفون

للأمة أدوية تقيها الأسواء والأرزاء، ويعترضون على العالمين والحاكمين والسلاطين بلا خشية ولا حياء، كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح، أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية، يتعلمها المرء بالذوق وتوحي إليه إيحاءً.

من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها في أخلاقهم ومعارفهم وقد شانوا اسمها وعبثوا بجمالها، تذرعًا إلى مطمع ينالونه، وصيت بالباطل يحصلونه، ومقام عالٍ ينزلونه. نعم لم نشهد العطار بيطارًا، ولا الإسكاف نجارًا، ولا الحطاب رسامًا، ولا الفحام نظامًا، ولا الجوهري حجامًا؛ ولكن شهدنا الفلاح صحافيًّا، والمتشدق مؤلفًا، والثرثار محاميًا، والمكثار خطيبًا. كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجاراةالأذكياء، والفقراء يقلدون الأغنياء.

بيد أن سنن الفطرة التي لا تغالب، ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل، يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنته يداه، كما قيل في الأمثال الإفرنجية كل خطاء يحمل عقوبته فيه. وندر جدًّا في الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة، ونسج حلل مجدهم بأيديهم.

رأينا كثيرًا ولا سيما في مصر والشام التصقوا بالصحافة وأنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائبين؛ لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلي، ولأن التمويه إن صعب في عمل فهو في الأعمال العلمية أصعب ...

ولقد شاهدنا عيانًا أن معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقين خاصة هي التي قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدربوا في السياسة وتذوقوا لماظة من العلوم التي لا يسع

صاحب جريدة ومجلة جهلها. ومعظم من لم يخادنهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر. ولو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للأعمال، لوضع في قانوننا بند يُلزم كل من تصدَّر لمعاناة صناعة القلم، أن يمتحن في الفن الذي يخوض عبابه، كما يمتحن المتطببون والصيادلة، فإنشاء الصحف إن لم يكن أحق بالعناية من معرفة الأمراض والعلل والعقاقير، فلا أقل من أن يكون على مستواها، فكم من جاهل قتل نفسًا زكية، ومن صحافي جرع قراءه السم الزعاف، على حين ينتظر منه الترياق النافع.

هذا ما قلناه ونزيد عليه أن الإخصاء أو الاختصاص العلة الأولى في نجاح الغرب في صحافته يجب أن يكون له في صحفنا المقام المحمود، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض أبنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة. ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام «المشرق» «مجلة المجمع العلمي العربي» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبي»، ومن المجلات المحتجبة «الرئيس» «الطبيب» «المقتبس» «الآثار» «الكلية» «الحارس» «الخدر» «المرأة الجديدة». ومن صحفنا اليومية «لسان الحال» «الأحرار» «القبس» «ألف باء» «فتى العرب» «الرأي العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الأحوال» «النهار» «النضال» «الكفاح» «الأيام» إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية ومنها الجدي والهزلي المصور وغير ذلك.

وبعد فالواجب على الصحافي قبل كل شيء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئيها، وأن يكون قادرًا على النقل والاحتذاء من أفكار

الغربيين، أي عارفًا بلغة أو لغتين من لغات السياسة والعلم، وأن يكون ممن عانى البحث ملمًّا بالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الأمة ولا سيما تاريخ هذا القطر عارفًا الاقتصاد والاجتماع وحياة الأمم وتاريخها وثوراتها ونهضاتها ونقاباتها وألوان أحزابها وأوضاعها، كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه. أما المباحث المالية والزراعة والتجارة والفنون والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار وبث الصحيح منها، فيجب أن يوكل شأنها لأهل الإخصاء من العارفين بها. وبذلك يصح أن يقال: إن لنا صحافة راقية، وما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة في مادتها وأخبارها وأفكارها وإذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه، فهناك البلاء الذي يحول دون الرقي.

الطباعة والكتب

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد، إلا في القرن السابع عشر، ومن أوائل الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف وقانون ابن سينا، وقام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة (١١٤٥)، وطبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفًا خلال ستين سنة وأكثرها ديني، وهي مطبعة يدوية على الحجر، وقد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (١٦١٠م)، ودخلت الطباعة الأستانة سنة (١١٣٥هـ) وأول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن عشر؛ بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات والرهبنات الدينية من الغربيين، وإلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت

بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أُسست سنة ١٨٣٤م واليسوعية ١٨٤٨م) التي كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية إلى إنجيل المسيح في هذا الشرق القريب بين أبناء العرب، ثم خدمة التهذيب والثقافة الإنكليزية والفرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية. والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدأ الذي يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته.

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت، وقل جدًّا فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة. طبعت قصصًا معربة وأشعارًا ودواوين قديمة وحديثة وكتبًا دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلًا من كتب العرب التي لا يزال ألوف منها محفوظًا في خزائننا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه ويجود العناية به من حيث التصحيح والتعليق. ونحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم وتتعلم منهم. ولولا ألوف من كتبنا طبعت في مصر والأستانة والهند وأوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم والآداب القديمة؛ ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث؛ لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولًا، وأرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد إقباله على الهزل، ولا يقدر أن المنفعة له في الصعب قبل السهل، وأكبر الظن أن كثيرًا من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم في الفكر والتعلم.

ولقد شاهدنا أُناسًا من الغُيُر على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها، والمؤلف غير التاجر، ثم هم لم يجدوا في الأغنياء والحكومات من يناصرهم ولو بابتياع نسخ معدودة من كتبهم. ورأينا أُناسًا طبعوا كتبًا سخيفة من تأليفهم فروجوها هم أو أحبابهم بالتجبية والقحة فدرت عليه أرباحًا لا يستهان بها. فلا عجب إذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ولو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزاد عدد الراغبين في المسائل الجدية أكثر من الآن ولارتفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع.

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم في عهد ارتقاء العلم في العرب، وقلَّ أن طبع كتاب بذاك الإتقان الذي تطبع به الكتب في أرض المدنية اللهم إلا في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسرت لأنها لجماعات لا لأفراد. وما عدا عشرات من الكتب التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر. لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجًا في إتقانه ووضعه وتأليفه. وغاية ما نشروه كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية أو شعار أُناس تهجموا على التأليف تهجمًا، ولما يستعدوا له الاستعداد الكافي، ولم يجودوا مصنفاتهم بإنضاجها بالبحث والتنقيب، وإيراد الطريف من المباحث.

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة، ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب، ولولا ما طبعته جمعيات المستشرقين في ممالك أوربا وأميركا لفاتنا الوقوف على أمور كثيرة في مدينة العرب وتاريخهم، وإلى اليوم لم تبلغ

مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب، وبعضها بإتقان زائد في الطبع، كمطبوعات المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية ومطبعة جمعية التأليف والترجمة والنشر مبلغ مطبعة ليدن وليبسيك في الإجادة، ولا سيما في الفهارس والشروح والهوامش والأمانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا وعنهم يجب أخذه.

تأملنا مليًا فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية مؤقتة إلا قليلًا، تخدم فكرًا خاصًا ولا يتوقع منها إلا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة، ومعظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون، ومنهم من لا يجيد الترجمة، وكم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف ورداءة الطبع. ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الأولى أي في أواخر القرن الماضي أكثر من اليوم، ولقد تسربت روح التفرنج إلى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية، وغدوا لا يهتمون إلا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب، وفي الغالب تكون الفرنسية أو الإنكليزية وقلما رأينا رجلًا كفوءًا من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الإفرنج أن نقل، لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه، موضوعًا نافعًا لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدنهم؛ لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية.

وقد زاد في رداءة التآليف المطبوعة كون المؤلفين، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه، يخافون نقد الناقدين عليها، وكون بعض الصحف والمجلات تصانع في الأكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين، وتدهن دهانًا عجيبًا لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة أو على مشربه السياسي! أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية. ولذلك استشرى الفساد وظن

كل من طبع شيئًا أنه خدم الأمة خدمة صالحة. والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال إلى بحابح المدنية مما لا يؤبه له، وربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين. قسم السيد أسعد داغر من يعرضون في سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف إلى فريقين فريق المحترفين وفريق الهواة، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شر المتربة، ويعيشوا من شق تلك القصبة، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لأن لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب، ومعظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم ومؤلفاتهم وينظرون إلى الانتقاد والمنتقد بعين الشانئ الكاشح.

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو عصر النهضة عندنا، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القارئ للأخذ منها مثل كتب محمد عابدين، أحمد فارس، فانديك، ورتبات، بوست، بورتر، لامنس، شيخو، مشاقة، إبراهيم اليازجي، إبراهيم الحوراني، طاهر الجزائري، عبد الرحمن الكواكبي، سعيد الشرتوني، جمال الدين القاسمي، رفيق العظم، شبلي شميل، شكيب أرسلان، نجيب الحداد، يعقوب صروف، عيسى المعلوف، إسعاف النشاشيبي، إبراهيم الأحدب، يوسف الأسير، بطرس وسليمان وعبد الله البستاني، أحمد حمدي الخياط، مرشد خاطر، جميل الخاني، شفيق جبري، سليم الجندي، خليل مردم بك، أمين الريحاني، خليل سعادة وأضرابهم ممن أبرزوا تآليف منقحة، وفي بعضها إبداع وإيجاد؛ وذلك لأنهم هضموا العلوم التي عُرفوا بها، وجاءوا بالجديد، وفيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة.